

دحيم ، حدثنا الوليد ، حدثنا الأوزاعي عن الزهري ، قال : إذا قال الله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ افعلوا ؛ فالتبني ﷺ منهم ؛ وحدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش عن خيشمة قال : كل شيء في القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو في التوراة يا أيها المساكين . فأما ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي ، حدثنا معاوية يعني ابن هشام ، عن عيسى بن راشد ، عن علي بن بزيمة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلا أن علياً سيدها وشريفها وأميرها ، وما من أصحاب النبي ﷺ أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب ، فإنه لم يعاتب في شيء منه ؛ فهو أثر غريب ، ولفظه فيه نكارة ، وفي إسناده نظر .

وقال البخاري : عيسى بن راشد هذا مجهول ، وخبره منكر ، قلت : وعلي بن بزيمة وإن كان ثقة إلا أنه شيعي غال ، وخبره في مثل هذا فيه تهمة فلا يقبل ؛ وقوله : فلم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا علياً ، وإنما يشير به إلى الآية الأمرة بالصدقة بين يدي النجوى ، فإنه قد ذكر غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا علي ، ونزل قوله ﴿أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم﴾ الآية ؛ وفي كون هذا عتاباً نظر ، فإنه قد قيل : إن الأمر كان ندباً لا إيجاباً ، ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل ، فلم يصدر من أحد منهم خلافه ؛ وقوله : عن علي أنه لم يعاتب في شيء من القرآن فيه نظر أيضاً ، فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء ؛ عمت جميع من أشار بأخذه ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فعلم بهذا وبما تقدم ضعف هذا الأثر ، والله أعلم . وقال ابن جرير : حدثني المثني ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث ، حدثني يونس قال : قال محمد بن مسلم : قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمر بن حزم حين بعته إلى نجران ، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم فيه «هذا بيان من الله ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ فكتب الآيات منها حتى بلغ ﴿إن الله سريع الحساب﴾» .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه ، قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمر بن حزم حين بعته إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتاباً وعهداً ، وأمره فيه بأمره ، فكتب «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر بن حزم حين بعته إلى اليمن ، أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» .

قوله تعالى : ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني بالعقود اليهود ؛ وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك ، قال : والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الخلف وغيره . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ يعني العهود ، يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله ، ولا تغدروا ولا تنكثوا ، ثم شدد في ذلك فقال تعالى : ﴿والذين يقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ إلى قوله ﴿سوء الدار﴾ وقال الضحاك : ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال : ما أحل الله وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم الفرائض من الحلال والحرام . وقال زيد بن أسلم ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال : هي ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقال محمد بن كعب : هي خمسة منها حلف الجاهلية ، وشركة المفوضة . وقد استدلت بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال : فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ويقتضي نفي خيار المجلس ، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك ، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور ، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» . وفي لفظ آخر للبخاري «إذا تابع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» . وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالترامه من تمام الوفاء بالعقود .

وقوله تعالى : ﴿أحللت لكم بهيمة الأنعام﴾ هي الإبل والبقر والغنم ، قاله أبو الحسن وقتادة وغير واحد ؛ قال ابن جرير : وكذلك هو عند العرب ؛ وقد استدلت ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت ، وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طريق مجالد عن أبي الوداك جبير بن نوفل ، عن أبي سعيد قال : قلنا : يارسول الله نحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقه أم نأكله ؟ فقال «كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه» . وقال الترمذي : حديث حسن ، قال أبو داود : حدثنا محمد بن يحيى بن فارس ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عتاب بن بشير ، حدثنا عبيد الله بن أبي زياد القداح المكي عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله ، عن رسول الله ﷺ ، قال «ذكاة الجنين ذكاة أمه» تفرد به أبو داود .

وقوله ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير ؛ وقال قتادة : يعني بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه والظاهر - والله أعلم - ان المراد بذلك قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع﴾ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض ؛ ولهذا قال ﴿إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾ يعني منها فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أحللت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال .

وقوله تعالى : ﴿غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الانسي من الابل والبقر والغنم ، ويعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر ، فاستثنى من الإنسي ما تقدم ، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الاحرام ، وقيل : المراد أحللتنا لكم الأنعام ، إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد ، وهو حرام لقوله ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ أي أبحتنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد ، وهكذا هنا أي كما أحللتنا الأنعام في جميع الأحوال فحرموا الصيد في حال الإحرام ، فإن الله قد حكم بهذا ، وهو الحكيم في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ ثم قال تعالى : ﴿يأياها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك مناسك الحج . وقال مجاهد : الصفا والمروة ، والهدي والبدن من شعائر الله ؛ وقيل : شعائر الله محارمه ، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها تعالى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم ، كما قال تعالى : ﴿يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ وقال تعالى : ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ الآية ، وفي صحيح البخاري عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» وهذا يدل على استمرار تحريمها الى آخر وقت ، كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني لا تستحلوا القتال فيه ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك الجزري ، واختاره ابن جرير أيضاً ، وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿فإذا نسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدوهم﴾ والمراد أشهر التسيير الأربعة ، قالوا : فلم يستثن شهراً حراماً من غيره ، وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة ؛ قال : وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان ، وهذه المسألة بحث آخر له موضع أبسط من هذا .

وقوله تعالى : ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدي الى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء ، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ ، بات بذى الحليفة وهو وادي العقيق ، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً ، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلده ، وأهل للحج والعمرة ، وكان هديه إبلاً كثيرة تيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان ، كما قال تعالى : ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ وقال بعض السلف إعظامها استحسانها واستسمانها ، قال علي بن أبي طالب : أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن ، رواه أهل السنن .

وقال مقاتل بن حيان : قوله ﴿ولا القلائد﴾ فلا تستحلوها وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم ، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به ، رواه ابن أبي حاتم ثم قال : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا سعيد بن سليمان ، قال : حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : نسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد وقوله ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ وحدثنا المنذر بن شاذان حدثنا زكريا بن عدي حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن غوف قال : قلت للحسن : نسخ من المائدة شيء ؟ قال لا ، وقال عطاء : كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون فنهى الله عن قطع شجره وكذا قال مطرف بن عبد الله .

وقوله تعالى : ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً في رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . قال مجاهد وعطاء وأبو العالية ومطرف بن عبد الله وعبد الله بن عبيد بن عمير والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغير واحد في قوله ﴿يبتغون فضلاً من ربهم﴾ يعني بذلك التجارة ، وهذا كما تقدم في قوله ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ . وقوله ﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس : يترضون الله بحجهم وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في الحطيم بن هند البكري كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ .

وقد حكى ابن جرير الاجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم ، والله أعلم - فأما من قصده بالاحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع ، قال تعالى : ﴿يأياها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمر الصديق على الحجيج علياً وأمره أن ينادي على سبيل النياحة عن رسول الله ﷺ براءة وأن لا يبيع بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، وقال ابن أبي طلحة : عن ابن عباس قوله ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾ يعني من توجه قبل البيت الحرام فكان المؤمنون والمشركون يحجون فبهى الله المؤمنين أن يمنوا أحداً من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعدها ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ وقال ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ نفى المشركين من المسجد الحرام . وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله ﴿ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام﴾ قال : منسوخ ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد ، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد ، وكان المشرك يومنذ لا يصد عن البيت ، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت فنسخها قوله ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ولا القلائد﴾ يعني إن تقلدوا قلادة من الحرم فأمنوهم ، قال ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك ، قال الشاعر :

لم تقتلوا الحرجين إذ أعورا لكم
يمران بالأبيدي اللحاء المضفرا

وقوله تعالى : ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذي يثبت على السير ، أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي فإن كان واجبا رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح ، ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة ، ومن قال إنه للاباحة يرد عليه آيات أخرى ، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه ، كما اختاره بعض علماء الأصول ، والله أعلم . وقوله ﴿ولا يجرمكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ من القراء من قرأ أن صدوكم بفتح الألف من أن ، ومعناها ظاهر أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم ففتنصوا منهم ظناً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد ، وهذه الآية كما سيأتي من قوله ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فإن العدل الواجب على كل أحد في كل حال ، وقال بعض السلف : ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل به قامت السموات والأرض وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سهل بن عفان ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صددهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبي ﷺ : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية ، والشئان هو البغض قاله ابن عباس وغيره وهو مصدر من شأنه أشنؤه شأنًا بالتحريك ، مثل قولهم جهزان ودرجان ورقلان من جهز ودرج ورقل ، وقال ابن جرير : من العرب من يسقط التحريك في شأن فيقول شأن ولم أعلم أحداً قرأ بها . ومنه قول الشاعر :

وما العيش إلا مسا تحب وتستهي
وإن لام فيه ذو الشئان وفسدا

وقوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المأثم والمحارم ، قال ابن جرير : الإثم ترك ما أمر الله بفعله والعدوان مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي

غيركم ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس عن جده أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل : يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال «تجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصرته» انفرد به البخاري من حديث هشيم به نحوه ، وأخرجه من طريق ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ قال «تمنعه من الظلم فذاك نصرته» وقال أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا سفيان بن سعيد ، عن الأعمش ، عن يحيى بن وثاب ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» وقد رواه أحمد أيضاً في مسند عبد الله بن عمر ، حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة عن الأعمش ، عن يحيى بن وثاب ، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ أنه قال «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وهكذا رواه الترمذي من حديث شعبة وابن ماجه من طريق إسحاق بن يوسف كلاهما عن الأعمش به . وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد أبو شيبة الكوفي ، حدثنا بكر بن عبد الرحمن ، حدثنا عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى ، عن فضيل بن عمرو ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «الدال على الخير كفاعله» ثم قال لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد ، قلت له شاهد في الصحيح «ومن دعا إلى الهدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً» ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن زريق الحمصي ، حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن الحارث عن عبد الله بن سالم عن الزبيدي قال عباس بن يونس : إن أبا الحسن غمران بن صخر ، حدثه أن رسول الله ﷺ قال «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام» .

حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أَيْمَانُ الدِّمِّ وَالْحَمَّ الْخَيْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَبِقَةَ وَالْمُؤَفَّقَةَ وَالْمُرْدِيَةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلَ

السَّعِجَ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُيِّبَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فَنُصِّحُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي

مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مَتَجَانِفٍ لِإِسْمِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النبي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطيد وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهاذا حرمها الله عز وجل ، ويستثنى من الميتة السمك ، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما رواه مالك في موطنه ، والشافعي وأحمد في مسنديهما ، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه في سننهم ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر ، فقال «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» ؛ وهكذا الجراد ، لما سيأتي من الحديث . وقوله : ﴿والدم﴾ يعني به المسفوح ، كقوله : ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير ؛ قال ابن أبي حاتم : حدثنا كثير بن شهاب المذحجي ، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق ، حدثنا عمرو يعني ابن قيس عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس إنه سئل عن الطحال فقال : كلوه ؛ فقالوا : إنه دم ؛ فقال : إنما حرم عليكم الدم المسفوح ؛ وكذا رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم ! عن عائشة ؛ قالت : إنما نهى عن الدم السافح ؛ وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن ابن عمر مرفوعاً ، قال : قال رسول الله ﷺ «أحل لنا سبتان ودمان ؛ فأما الميتتان . فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال» ؛ وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف ؛ قال الحافظ البيهقي : ورواه إسماعيل بن أبي إدريس عن أسامة ، وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً ؛ قلت : وثلاثتهم كلهم ضعفاء ، ولكن بعضهم أصلح من بعض ؛ وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر فوقفه بعضهم عليه ؛ قال الحافظ أبو زرعة الرازي : وهو أصح ؛ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب ، حدثنا بشير بن شريح عن أبي غالب ، عن أبي أمامة وهو

صدي بن عجلان ، قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام ، فأتيتهم فبينما نحن كذلك ، إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها فقالوا : هلم يا صدي فكل ؛ قال : قلت : ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم فأقبلوا عليه ؛ قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ الآية ؛ ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث ابن أبي الشوارب بإسناده ، مثله ، وزاد بعده هذا السياق قال : فجعلت أدعوهم إلى الإسلام ويأبون عليّ ، فقلت : ويحكم ، استقوني شربة من ماء ، فإني شديد العطش ، قال : وعليّ عباتي ، فقالوا : لا ، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً ؛ قال : فاغتمت وضربت برأسي في العباء ، وغت على الرمضاء في حر شديد ، قال : فأتاني أت في منامي بقدر من زجاج لم ير الناس أذى منه ، فأمكنني منه فشربته ، فلما فرغت من شرابي استيقظت فلا والله ما عطشت . ولا عريت بعد تيك الشربة . ورواه الحاكم في مستدرکه عن علي بن حماد ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني عبد الله بن سلمة بن عياش العامري ، حدثنا صدقة بن هرم عن أبي غالب ، عن أبي أمامة وذكر نحوه ؛ وزاد بعد قوله : بعد تيك الشربة ، فسمعتهم يقولون : أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تجمعوه بمذقة ، فأتوني بمذقة فقلت : لا حاجة لي فيها ، إن الله أطعمني وسقاني ، وأريتهم بطني ، فأسلموا عن آخرهم ، وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق :

وليساك والميتان لا تقربنها ولا تأخذن عظماً حديداً فتفصدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية ، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً معدداً من عظم ونحوه ، فيفصد به بعيره أو حيواناً من أي صنف كان ، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة ، ثم قال الأعشى :

وذا النصب المنصب لا تأتينه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

قوله : ﴿ ولحم الخنزير ﴾ يعني إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جودهم ههنا ، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله : ﴿ فإنه رجس أو فسقاً ﴾ يعنون قوله تعالى : ﴿ إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾ اعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه ، وهذا بعيد من حيث اللغة ، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه ، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد ؛ وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من لعب بالبردشير ، فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه » فإذا كان هذا التفسير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به ، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره ؟ وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » فقيل : يا رسول الله رأيت شحوم الميتة فإنها تظلي بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال « لا ، هو حرام » . وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم : نهانا عن الميتة والدم .

وقوله : ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله ، فهو حرام ، لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم ، فمتى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات ، فإنها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء في متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً كما سيأتي تقريره في سورة الأنعام ؛ وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن السنجاني ، حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا ابن الفضيل عن الوليد بن جميع ، عن أبي الطفيل ، قال : نزل آدم بتحريم أربع : الميتة : والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، وإن هذه الأربعة الأشياء لم تحل قط ، ولم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض ، فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم ، فلما بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام نزل بالأمر الأول الذي جاء به آدم وأحل لهم ما سوى ذلك ، فكذبوه وعصوه ؛ وهذا أثر غريب ؛ وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أبي ؛ حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا ربعي عن عبد الله ، قال : سمعت الجارود بن أبي سبرة ، قال : هو جدي ، قال : كان رجل من بني رباح يقال له ابن وائل ، وكان شاعراً ، نافر غالباً أبا الفرزدق بماء يظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء ، فلما وردت الماء قاما إليها بسفيهما فجعلا يكشفاً عراقبيها ، قال : فخرج الناس على الحميرات والبغال يريدون اللحم ، قال : وعلي بالكوفة ، قال : فخرج علي بن بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادي : يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها ، فإنها أهل بها لغير الله ، هذا أثر غريب ، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا ابن حماد بن مسعدة عن عوف ، عن أبي ربحانة ، عن ابن عباس ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن معاورة الأعراب ، ثم قال أبو داود محمد بن جعفر هو غندر : أوقفه على ابن عباس ، تفرد به أبو داود ؛ وقال أبو داود أيضاً :

حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء ، حدثنا أبي ، حدثنا جرير بن حازم عن الزبير بن حريث ، قال : سمعت عكرمة يقول : إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل ، ثم قال أبو داود : أكثر من رواه غير ابن جرير لا يذكر فيه ابن عباس ، تفرد به أيضاً .

قوله : «**والمختنقة**» وهي التي تموت بالخنق ، إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تتخبل في وثاقها ، فتموت به فهي حرام ، وأما الموقودة فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ؛ كما قال ابن عباس وغير واحد : هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقدها فتموت ، قال قتادة : كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها . وفي الصحيح ان عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إني أرمي بالمعرض الصيد فأصيب ؛ قال «إذا رميت بالمعرض فخرق فكله ، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله» ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالزراق ونحوه بحده ، فأحله ، وما أصاب بعرضه فجعله وقيداً لم يحله ، وهذا يجمع عليه عند الفقهاء ، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ، ولم يجرحه على قولين ، هما قولان للشافعي رحمه الله [أحدهما] لا يحل كيا في السهم والجامع ان كلا منها ميت بغير جرح فهو وقيد . [والثاني] إنه يحل لأنه حكم بإباحة ماصاده الكلب ولم يستفصل ، فدل على إباحة ما ذكرناه ، لأنه قد دخل في العموم ، وقد قررت هذه المسألة فصلاً فليكتب هنا .

[فصل] - اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه ، أو صدمه : هل يحل أم لا ؟ على قولين [أحدهما] أن ذلك حلال للعموم قوله تعالى : «**فكلوا مما أمسكن عليكم**» ، وكذا عمومات حديث عدي بن حاتم ، وهذا قول حكاها الأصحاب عن الشافعي رحمه الله ، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووي والرافعي . (قلت) وليس بظاهر من كلام الشافعي في الأم والمختصر ، فإنه قال في كلا الموضوعين : يحتمل معنيين ، ثم وجه كلا منهما فحمل ذلك الأصحاب منه ، فأطلقوا في المسألة قولين عنه ، اللهم إلا أنه في بحثه للقول بالحل رشحه قليلاً ، ولم يصرح بواحد منها ، ولا جزم به ، والقول بذلك - أعني الحل - نقله ابن الصباغ عن أبي حنيفة من رواية الحسن بن زياد عنه ، ولم يذكر غير ذلك . وأما أبو جعفر بن جرير فحكاها في تفسيره عن سلمان الفارسي وأبي هريرة وسعد بن أبي وقاص وابن عمر ، وهذا غريب جداً ، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم ، إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضي عنه .

[والقول الثاني] - أن ذلك لا يحل ، وهو أحد القولين عن الشافعي ، رحمه الله واختاره المزني ؛ ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً ، والله أعلم . ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة ، وهو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وهذا القول أشبه بالصواب ، والله أعلم ؛ لأنه أجري على القواعد الأصولية ، وأمس بالأصول الشرعية ؛ واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج ، قلت : يا رسول الله ، إنا ملاقو العدو غداً ، وليس معنا مدى ، أفنديج بالقصب ؟ قال «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**» ، الحديث بتمامه ، وهو في الصحيحين . وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص ، فالعبارة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع ، كما سئل عليه السلام عن البتخ ، وهو نبيذ العسل ؛ فقال «**كل شراب أسكر فهو حرام**» ، أفيقول فقيه : إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل ، وهكذا هذا ، كما سألوه عن شيء من الذكاة ، فقال لهم كلاماً عاماً يشمل ذاك المسؤول عنه وغيره لأنه عليه السلام كان قد أوتي جوامع الكلم ، إذا تقرر هذا ، فما صدمه الكلب أو غمه بثقله ليس مما أنهر دمه ، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث ، فإن قيل : هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء ، لأنهم إنما سألوه عن الآلة التي يذكي بها ، ولم يسأله عن الشيء الذي يذكي ، ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر حيث قال : «**ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك ؛ أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحيشة**» والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه ، وإلا لم يكن متصلاً ، فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة ، فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم ، فالجواب عن هذا بأن في الكلام ما يشكل عليكم أيضاً ، حيث يقول «**ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه**» ، ولم يقل : فاذبحوا به ، فهذا يؤخذ منه الحكمان معاً ، يؤخذ حكم الآلة التي يذكي بها ، وحكم المذكي وأنه لا بد من إظهار دمه بالآلة ليست سناً ولا ظفراً ، هذا مسلكت .

[والمسلكت الثاني] : طريقة المزني ، وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل ، وإن خرق فكل ، والكلب جاء مطلقاً ، فيحمل على ما قيد هناك من الخرق لأنها اشتركا في الموجب وهو الصيد فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب كما وجب حمل مطلق الإعتاق في الظهار على تقييده بالإيمان في القتل ، بل هذا أولى ، وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي ، وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة ، فلا بد لهم من جواب عن هذا ، وله أن يقول هذا قتله الكلب بثقله ، فلم يحل قياساً على ما قتله السهم بعرضه ، والجامع أن كلا منهما آلة للصيد ، وقد مات بثقله فيها ، ولا يعارض ذلك بعموم الآية ، لأن القياس مقدم على العموم ، كما هو مذهب الأئمة الأربعة

والجمهور؛ وهذا مسلك حسن أيضاً .

[مسلك آخر] - وهو أن قوله تعالى : ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ عام فيما قتلن بجرح أو غيره ، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو إما أن يكون نظيحاً أو في حكمه ، أو منخفاً أو في حكمه ، وأياً ما كان ، فيجب تقديم هذه الآية على تلك لوجوه : [أحدها] أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد حيث يقول لعدي بن حاتم : وإن أصابه بعرضه ، فإنما هو وقيد فلا تأكله ؛ ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية ، فقال : إن الوقيد معتبر حالة الصيد ، والنطيح ليس معتبراً ، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به ، وهو محذور عند كثير من العلماء . [الثاني] أن تلك الآية ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بما صدن من الحيوان المأكول ، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق ، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ . [المسلك الآخر] - أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء ، لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات ، فلا تحل قياساً على الميتة .

[المسلك الآخر] - أن آية التحريم ، أعني قوله : حرمت عليكم الميتة إلى آخرها ، محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة ، أعني قوله تعالى : ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات﴾ الآية ؛ فينبغي أن لا يكون بينها تعارض أصلاً ، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك ، وشاهد ذلك قصة السهم ، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية ، وهو ما إذا خزقه المراض فيكون حلالاً ، لأنه من الطيبات ، وما دخل في حكم تلك الآية ، آية التحريم ، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل ، لأنه وقيد ، فيكون أحد أفراد آية التحريم ، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب ، فهو داخل في حكم آية التحليل ، وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله ، فهو نظيح أو في حكمه ، فلا يكون حلالاً ، (فان قيل) فلم لا فصل في حكم الكلب ، فقال : ما ذكرتم إن جرحه فهو حلال ، وإن لم يجرحه فهو حرام .

[فالجواب] أن ذلك نادر ، لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معاً ، وأما اصطدامه هو والصيد فنادر ، وكذا قتله إياه بثقله ، فلم يحتاج إلى الاحتراز من ذلك لندوره أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة . وأما السهم والمراض فتارة يخطيء لسوء رمي رامي ، أو للهوى أو لنحو ذلك ، بل خطؤه أكثر من إصابته ، فلهذا ذكر كلا من حكميه مفصلاً ، والله أعلم ؛ ولهذا لما كان الكلب ، من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال «إن أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» وهذا صحيح ثابت في الصحيحين ؛ وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين ، فقالوا : لا يجلب ما أكل منه الكلب ، حكى ذلك عن أبي هريرة وابن عباس ؛ وبه قال الحسن والشعبي والنخعي ، وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحبه ، وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه ، وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعيد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس : إن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب ، حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم : يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة ، وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم ، وأوماً في الجديد إلى قولين ، قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه .

وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوي عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب «إذا أرسلت كلبك ودكرت اسم الله ، فكل وإن أكل منه وكل ما ردت عليك يدك» ورواه أيضاً النسائي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده : أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال : يارسول الله ، فذكر نحوه ؛ وقال محمد بن جرير في تفسيره : حدثنا عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا عبد العزيز بن موسى هو اللاخوني ، حدثنا محمد بن دينار هو الطاحي عن أبي إياس وهو معاوية بن قرة ، عن سعيد بن المسيب ، عن سلمان الفارسي ، عن رسول الله ﷺ قال «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه ، فليأكل ما بقي» ثم إن ابن جرير علله بأنه قد رواه أبو قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب ، عن سلمان موقوفاً .

وأما الجمهور فقدما حديث عدي على ذلك ، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره ، وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجيء ، فأكل منه لجوعه ونحوه فإنه لا بأس بذلك ، لأنه والحالة هذه لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة ، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه ، والله أعلم . فأما الجوارح من الطيور فنص الشافعي على أنها كالكلب ، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور ، ولا يحرم عند الآخرين ، واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح ، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد ،

قالوا : لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه ، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك ، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير . وقال الشيخ أبو علي في الإفصاح : إذا قلنا يحرم ما أكل منه الكلب ، ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان ، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفرع والترتيب لنص الشافعي رحمه الله ، على التسوية بينهما ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأما المتردية فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال ، فتموت بذلك ، فلا تحل ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المتردية التي تسقط من جبل . وقال قتادة : هي التي تتردى في بئر . وقال السدي : هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر .

وأما النطيحة فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها ، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها ، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة ، أي منطوحة ، وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث ، فيقولون : عين كحيل ، وكف خضيب ، ولا يقولون : كف خضيبة ، ولا عين كحيلية ؛ وأما هذه فقال بعض النحاة : إنما استعمل فيها تاء التأنيث ، لأنها أجريت بحرى الأسماء كما في قولهم : طريقة طويلة ؛ وقال بعضهم : إنما أتت ببناء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام .

وقوله تعالى : ﴿ وما أكل السبع ﴾ أي ماعدا عليها أسد أو فهد أو غر أو ذئب أو كلب ، فأكل بعضها فماتت بذلك ، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحتها ، فلا تحل بالإجماع ، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك ، فحرم الله ذلك على المؤمنين .

وقوله ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته ، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله ﴿ والمختقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ إلا ما ذكيتم ﴾ يقول : إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه ، فهو ذكي ؛ وكذا روي عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه ، عن علي في الآية قال : إن مصعت بذنتها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها ، فكل . وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هشيم وعباد ، قال : حدثنا حجاج عن حصين ، عن الشعبي ، عن الحارث ، عن علي قال : إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة ، وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها ؛ وهكذا روي عن طائوس والحسن وعتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد : أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح ، فهي حلال ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء ؛ وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل . قال ابن وهب : سئل مالك عن الشاة التي يخرج جوفها السبع حتى يخرج أمعاؤها ، فقال مالك : لا أرى أن تذكى ، أي شيء يذكى منها ؟ وقال أشهب : سئل مالك عن الضبيع يعدو على الكيش فيدق ظهره ، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل ؟ فقال : إن كان قد بلغ السحرة فلا أرى أن يؤكل ، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً ، قيل له : وثب عليه فدق ظهره ؟ فقال لا يعجبني هذا لا يعيش منه . قيل له : فالذئب يعدو على الشاة فيثقب بطنها ولا يثقب الأمعاء ؟ فقال : إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل ؛ هذا مذهب مالك رحمه الله . وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية ، والله أعلم .

وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن أملاقو العدو غداً وليس معنا مدى ، أفنديح بالقتب ؟ فقال « ما أنهر الدم ، وذكر اسم الله عليه ، فكلوه ، ليس السن والظفر ، وسأحدثكم عن ذلك : أما السن فعظم ، وأما الظفر فمدى الحبشة . وفي الحديث الذي رواه الدارقطني مرفوعاً ، وفيه نظر ؛ وروى عن عمر موقوفاً وهو أصح « ألا إن الذكاة في الخلق واللبه ، ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق » . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية حماد بن سلمة عن أبي العشاء الدارمي عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ، أما تكون الذكاة إلا من اللبلة والخلق ؟ فقال « لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك » ، وهو حديث صحيح ، ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الخلق واللبلة .

وقوله ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ قال مجاهد وابن جريج : كانت النصب حجارة حول الكعبة ، قال ابن جريج : وهي ثلثمائة وستون نصباً ، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ؛ وكذا ذكره غير واحد ، ففيه الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب من الشرك الذي

حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله .
وقوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ أي حرم عليكم أي المؤمنون الاستقسام بالأزلام ، واحدها زلم وقد نفتح الزاي ، فيقال : زلم ؛ وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب : افعل ، وعلى الآخر لا تفعل ، والثالث غفل ليس عليه شيء . ومن الناس من قال : مكتوب على الواحد : أمرني ربي ، وعلى الآخر : نهاني ربي ، والثالث غفل ليس عليه شيء ؛ فإذا أجالها فطلع سهم الأمر ففعله ، أو النبي تركه ، وإن طلع الفارغ أعاد ؛ والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام ، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا الحجاج بن محمد ، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء ، عن ابن عباس ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال : والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور ؛ وكذا روي عن مجاهد وإبراهيم النخعي والحسن البصري ومقاتل بن حيان . وقال ابن عباس : هي قداح كانوا يستقسمون بها الأمور . وذكر محمد بن إسحاق وغيره : إن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هبل منصوب على بئر داخل الكعبة ، فيها توضع الهدايا ، وأموال الكعبة فيه ، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم ، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها ، وفي أيديهما الأزلام فقال «قاتلهم الله لقد علموا أنها لم يستقسما بها أبدا» .

وفي الصحيحين : أن سراقه بن مالك بن جعشم ، لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر ، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين ، قال : فاستقسمت بالأزلام ، هل أضرمهم أم لا ؟ فخرج الذي أكره لا تضرمهم . قال : فعصيت الأزلام واتبعتهم ، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة ، كل ذلك يخرج الذي يكره لا تضرمهم ، وكان كذلك ، وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك ؛ وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن يزيد عن رقية ، عن عبد الملك بن عمير ، عن رجاء بن حيوة ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ «لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً» . وقال مجاهد في قوله ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ قال : هي سهام العرب ، وكعاب فارس والروم ، كانوا يتقاملون . وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار ، فيه نظر ، اللهم إلا أن يقال : إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة وفي القمار أخرى ، والله أعلم ، فإن الله سبحانه قد قرن بينه وبين القمار وهو الميسر فقال في آخر السورة : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء - إلى قوله - متهون ، وهكذا قال ههنا ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ﴾ أي تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك . وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه .

كما روى الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن من طرق عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ؛ اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال : عاجل أمري وأجله - فاقدريه لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ؛ اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرفني عنه ، واصرفه عني ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضني به» لفظ أحمد ؛ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي الموالي .

وقوله ﴿اليوم يشس الذين كفروا من دينكم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني يشسوا أن يراجعوا دينهم ؛ وكذا روي عن عطاء بن أبي رباح والسدي ومقاتل بن حيان ؛ وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال «إن الشيطان قد يشس أن يعيده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم» ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ، ولهذا قال تعالى أمرا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ولا يخافوا أحداً إلا الله ، فقال ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْهُ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم ، واخشوني أنصركم عليهم وأبدهم ، وأظفركم بهم ، وأشف صدوركم منهم ، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة .

وقوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على

هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم ، فلا يحتاجون إلى دين غيره ، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ولا دين إلا ما شرعه ، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف ، كما قال تعالى : ﴿وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر والنواهي ، فلما أكمل لهم الدين ، تمت عليهم النعمة ، ولهذا قال تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي فارضوه أنتم لأنفسكم ، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه ، وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وهو الإسلام ، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أمه الله فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً . وقال أسباط عن السدي : نزلت هذه الآية يوم عرفه ، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ، ورجع رسول الله ﷺ فمات ؛ قالت أسماء بنت عميس : حججت مع رسول الله ﷺ تلك الحججة فبينما نحن نسير إذ تجمل لي جبريل ، فمال رسول الله ﷺ على الراحلة ، فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن ، فبركت ، فأثبته فسميت عليه بردا كان علي . وقال ابن جرير وغير واحد : مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفه بأحد وثمانين يوماً ، رواهما ابن جرير ، ثم قال : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عترة ، عن أبيه ، قال : لما نزلت ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ وذلك يوم الحج الأكبر ، بكى عمر ، فقال له النبي ﷺ «ما يبكيك ؟» قال : أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص ، فقال «صدقت» ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت «إن الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، فطوبى للغريباء» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ، إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت ، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأي آية ؟ قال : قوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ فقال عمر : والله إنني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ : عشية عرفة في يوم جمعة ؛ ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به . ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنسائي أيضاً من طرق عن قيس بن مسلم به . ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري ، عن قيس ، عن طارق قال : قالت اليهود لعمر : إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً . فقال عمر : إنني لأعلم حين أنزلت ، وأين أنزلت ، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت : يوم عرفة ، وأنا والله بعرفة ؛ قال سفيان : وأشك ، كان يوم الجمعة أم لا ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية ؛ وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية ، فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا ، وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة ، فهذا ما أخاله يصدر عن الثوري رحمه الله ، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به ، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ، ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها ، والله أعلم ؛ وقد روي هذا من غير وجه عن عمر .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا رجاء بن أبي سلمة ، أخبرنا عبادة بن نسي ، أخبرنا أميرنا إسحاق ، قال أبو جعفر بن جرير هو إسحاق بن حرشة عن قبيصة يعني ابن أبي ذئب ، قال : قال كعب : لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية ، لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم ، فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه ؛ فقال عمر : أي آية ياكعب ؟ فقال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ؛ فقال عمر : قد علمت اليوم الذي أنزلت ، والمكان الذي أنزلت فيه ؛ نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة ، وكلاهما بحمد الله لنا عيد . وقال ابن جرير : حدثنا أبو بكر ، حدثنا قبيصة ، حدثنا حماد بن سلمة عن عمار هو مولى بني هاشم : إن ابن عباس قرأ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فقال يهودي : لو نزلت هذه الآية علينا ، لاتخذنا يومها عيداً ؛ فقال ابن عباس : فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين : يوم عيد ، ويوم جمعة . وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن كامل ، حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا يحيى بن الحمانى ، حدثنا قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سليمان ، عن أبي عمر البزار ، عن ابن الحنفية ، عن علي قال : نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا ابن عياش ، حدثنا عمرو بن قيس السكوني ، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر يترزع بهذه الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ حتى ختمها ؛ فقال : نزلت في يوم عرفة في يوم جمعة . وروى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن عمرو بن موسى بن

دحية ، عن قتادة عن الحسن ، عن سمرة قال : نزلت هذه الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ يوم عرفة ، ورسول الله ﷺ واقف على الموقف ، فأما ما رواه ابن جرير وابن مردويه والطبراني من طريق ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران ، عن حنش بن عبد الله الصنعاني ، عن ابن عباس قال : ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، ودخل المدينة يوم الاثنين ، وفتح بداراً يوم الاثنين ، وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين - اليوم أكملت لكم دينكم . ورفع الذكر يوم الاثنين . فإنه أثر غريب ، وإسناده ضعيف ؛ وقد رواه الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران ، عن حنش الصنعاني ، عن ابن عباس قال : ولد النبي ﷺ يوم الاثنين ، واستنبت يوم الاثنين ، وخرج مهاجراً من مكة إلى المدينة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين ، ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين ؛ هذا لفظ أحمد ، ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين ، فإله أعلم ؛ ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين ، كما تقدم فاشتباه على الراوي ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : وقد قيل : ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس ، ثم روي من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ يقول : ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس ، قال : وقد قيل : إنها نزلت على رسول الله ﷺ في مسيره إلى حجة الوداع ، ثم رواه من طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس . قلت : وقد روى ابن مردويه من طريق أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري : أنها نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدير خم حين قال لعلي «من كنت مولاه فعلي مولاه» . ثم رواه عن أبي هريرة ، وفيه أنه اليوم الثامن عشر من ذي الحجة يعني مرجعه عليه السلام من حجة الوداع . ولا يصح هذا ولا هذا بل الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية أنها أنزلت يوم عرفة ، وكان يوم الجمعة كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان ، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، وسمرة بن جندب رضي الله عنه ، وأرسله الشعبي وقاتدة بن دعامة وشهر بن حوشب وغير واحد من الأئمة والعلماء ؛ واختاره ابن جرير الطبري رحمه الله .

وقوله ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة أجهته إلى ذلك ، فله تناوله ، والله غفور رحيم له لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ، ويغفر له ، وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته» لفظ ابن حبان ، وفي لفظ لأحمد «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة» ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ، وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أو له أن يشبع أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال كما هو مقرر في كتاب الأحكام ، وفيها إذا وجد ميتة وطعام الغنم أو صيداً وهو محرّم ، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء أو ذلك الطعام ويضمن بدله ، على قولين هما قولان للشافعي رحمه الله . وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعي ، حدثنا حسان بن عطية عن أبي واقد الليثي ، أنهم قالوا : يارسول الله ، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة ، فمتى تحمل لنا بها الميتة ؟ فقال «إذا لم تصطبخوا ، ولم تغتبقوا ، ولم تحتفتوا بها بقلأ فشأنكم بها» تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو إسناده صحيح على شرط الصحيحين ، وكذا رواه ابن جرير عن عبد الأعلى بن واصل عن محمد بن القاسم الأسدي عن الأوزاعي به ، لكن رواه بعضهم عن الأوزاعي ، عن حسان بن عطية ، عن مسلم بن يزيد ، عن أبي واقد به . ومنهم من رواه عن الأوزاعي ، عن حسان ، عن مرثد أو أبي مرثد ، عن أبي واقد به . ورواه ابن جرير عن هناد بن السري ، عن عيسى بن يونس ، عن حسان ، عن رجل قد سمي له فذكره ؛ ورواه أيضاً عن هناد ، عن ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن حسان مرسل ، وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عليه عن ابن عون ، قال : وجدت عند الحسن كتاب سمرة فقرأته عليه ، فكان فيه : ويجزىء من الأضطرار غبوق أو صبح .

حدثنا أبو كريب ، حدثنا هشيم عن الخصب بن زيد التميمي ، حدثنا الحسن : أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : متى يحل الحرام ؟ قال : فقال «إلى متى يروى أهلك من اللين أو تحمي ميرتهم» . حدثنا ابن حميد ، حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ، حدثني عمر بن عبد الله بن عروة ، عن جده عروة بن الزبير ، عن جدته : أن رجلاً من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه في الذي حرم الله عليه ، والذي أحل له ، فقال النبي ﷺ «يحل لك الطيبات ، ويحرم عليك الخبائث ، إلا أن

تفتقر إلى طعام لك ، فتأكل منه حتى تستغني عنه» . فقال الرجل : وما فقري الذي يجعل لي وما غنائي الذي يغنيني عن ذلك ؟ فقال النبي ﷺ «إذا كنت ترجو غناء تطلبه فتبلغ من ذلك شيئاً فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه» فقال الأعرابي : ما غنائي الذي أدمه اذا وجدته ؛ فقال ﷺ «إذا أرويت أهلك غبوقاً من الليل ، فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام مالك ، فإنه ميسور كله فليس فيه حرام» .

ومعنى قوله «ما لم تصطبحوها» يعني به الغذاء «وما لم تغتبقوها» يعني به العشاء «أو تحتفتوها بقلا فشانكم بها» فكلوا منها . وقال ابن جرير : يروى هذا الحرف ، يعني قوله «أو تحتفتوها» على أربعة أوجه : تحفؤ بالهمزة ، وتحتفتوا : بتخفيف الياء والحاء ، وتحتفتوا بتشديد ، وتحتفتوا بالحاء وبالتخفيف ، ويحتمل الهمز ، كذا رواه في التفسير .

[حديث آخر] - قال أبو داود : حدثنا هارون بن عبد الله ، حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا وهب بن عقبة العامري ، سمعت أبي يحدث عن النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ما يجعل لنا من الميتة ؟ قال «ما طعامكم» ؟ قلنا : نصطيح ونغتبق . قال أبو نعيم : فسره لي عقبة ، قذح غدوة وقذح عشية ، قال : ذاك وأبي الجوع ، وأحل لهم الميتة على هذه الحال . تفرد به أبو داود وكأنهم يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم ، فأحل لهم الميتة لتنام كفايتهم وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق ، والله أعلم . [حديث آخر] - قال أبو داود : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، حدثنا سماك عن جابر عن سمرة : أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده ؛ فقال له رجل : إن ناقتي ضلت ، فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدناها ولم يجد صاحبها ، ففرضت ، فقالت له امرأته : انحرها فأبى ، فنفتقت فقالت له امرأته : اسلخها حتى تقدد شحمها ولحمها فأنكله ، قال : لا حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتاه فسأله ، فقال «هل عندك غنى يغنيك ؟» قال : لا ، قال «فكلوها» قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر ، فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال استحييت منك ، تفرد به ، وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها ، والله أعلم .

وقوله : «غير متجانف لإثم» أي متعاط لمعصية الله ، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر ، كما قال في سورة البقرة «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم» وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفوره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي ، والله أعلم .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ

عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا لِمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيها ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى : «وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه» قال بعدها «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يجعل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ؛ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن أبي بكر ، حدثني عبد الله بن هبة ، حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير ، عن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين ، سألا رسول الله ﷺ فقالا : يارسول الله قد حرم الله الميتة ، فماذا يجعل لنا منها ؟ فنزلت «يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات» قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق ، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال : ليس هو من الطيبات ، رواه ابن أبي حاتم ؛ وقال ابن وهب : سئل مالك عن بيع الطير الذي يأكله ، فقال : ليس هو من الطيبات .

وقوله تعالى : «وما علمتم من الجوارح مكلبين» أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، والطيبات من الرزق ، وأحل لكم ما صدقتموه بالجوارح ، وهي الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة ، ومن قال ذلك علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : «وما علمتم من الجوارح مكلبين» وهن الكلاب المعلمة ، والبازي ، وكل طير يعلم للصيد والجوارح ، يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها . رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : وروي عن خيشمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبي كثير نحو ذلك ، وروي عن الحسن أنه قال : الباز والصقر من الجوارح ، وروي عن علي بن الحسين مثله ، ثم روي عن مجاهد أنه كره

صيد الطير كله ، وقرأ قوله ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ قال : وروي عن سعيد بن جبير نحو ذلك ، ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدي ، ثم قال : حدثنا هناد ، حدثنا ابن أبي زائدة ؛ أخبرنا ابن جريج عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير ، فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه ، قلت : والمحكي عن الجمهور ان الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب ، فلا فرق ، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير ؛ واحتج في ذلك بما رواه عن هناد : حدثنا عيسى بن يونس عن مجاهد ، عن الشعبي ، عن عدي بن حاتم ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : «ما أمسك عليك فكل» واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود ، لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال «يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود» فقلت : ما بال الكلب الأسود من الأحمر ؟ فقال : «الكلب الأسود شيطان» . وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال «ما بالهم وبال الكلاب ، اقتلوا منها كل أسود بهيم» وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح من الجرح ، وهو الكسب ، كما تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً ، أي كسبهم خيراً ، ويقولون : فلان لا جارح له أي لا كاسب له ؛ وقال الله تعالى : ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ما كسبتم من خير وشر ؛ وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم : حدثنا حجاج بن حمزة ، حدثنا زيد بن حباب ، حدثني يونس بن عبيدة ، حدثني أبان بن صالح عن القعقاع بن حكيم عن سلمى أم رافع ، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ ، أمر بقتل الكلاب ، فقلت : فجاء الناس فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ فسكت ، فأنزل الله ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ الآية ؛ فقال النبي ﷺ إذا أرسل الرجل كلبه وسمى ، فأمسك عليه ، فلْيَأْكُلْ ما لم يأكل» وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن زيد بن الحباب بإسناده عن أبي رافع قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه ، فأذن له ، فقال : قد أذن لك يا رسول الله ، قال : «أجل ولكننا لا ندخل بيتاً فيه كلب» قال أبو رافع : فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب يبنح عليها ، فتركته رحمة لها ، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته ، فجاءوا فقالوا : يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ .

رواه الحاكم في مستدركه من طريق محمد بن إسحاق عن إسحاق عن أبان بن صالح به ، وقال : صحيح ، ولم يخرجاه ؛ وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، عن عكرمة أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب حتى بلغ العوالي ، فجاء عاصم بن عدي وسعد بن خيثمة وعويم بن ساعدة ، فقالوا : ماذا أحل لنا يا رسول الله ؟ فنزلت الآية ، ورواه الحاكم من طريق سماك عن عكرمة ؛ وكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية : أنه في قتل الكلاب . .

وقوله تعالى : ﴿مكلبين﴾ يجتمل أن يكون حالاً من الضمير في علمتم ، فيكون حالاً من الفاعل ويجتمل أن يكون حالاً من المفعول ، وهو الجوارح ، أي وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكليات للصيد ، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها ، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجوارح إذا قتل الصيد بصدمة لا بمخالبه وظفره ، أنه لا يحل له ؛ كما هو أحد قولَي الشافعي وطائفة من العلماء ، ولهذا قال ﴿تعلمونن مما علمكم الله﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل ، وإذا أشلاه استشل ، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ، ولا يمسه لنفسه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿فكفوا عما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ فمتى كان الجوارح معلماً وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله ، حل الصيد وإن قتله بالإجماع . وقد وردت السنة بمثل ما دللت عليه هذه الآية الكريمة ؛ كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ؛ إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله ! فقال «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك» . قلت : وإن قتلن ؟ قال «وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها ، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره» قلت له : فإني أرمي بالمرعاض الصيد فأصيب ؟ فقال : إذا رميت بالمرعاض فخرق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد فلا تأكله» وفي لفظ لها «إذا أرسلت كلبك فأذكر اسم الله ، فإن أمسك عليك فأدركته حياً ، فأذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله ، فإن أخذ الكلب ذكاته» وفي رواية لها «فإن أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» فهذا دليل للجمهور ، وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يجرم مطلقاً ، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث ؛ وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا : لا يجرم مطلقاً .

ذكر الآثار بذلك

قال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا وكيع عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قال سلمان الفارسي : كل وإن أكل ثلثه - يعني الصيد - إذا أكل منه الكلب ، وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة وعمر بن عامر عن قتادة ، وكذا رواه محمد بن زيد عن سعيد بن المسيب عن سلمان ، ورواه ابن جرير أيضاً عن مجاهد بن موسى ، عن يزيد ، عن حميد ، عن بكر بن عبد الله المزني ، والقاسم بن سلمان قال : إذا أكل الكلب فكل ، وإن أكل ثلثه ، وقال ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني مخرمة بن بكير عن أبيه ، عن حميد بن مالك بن خيثم الدؤلي أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب ، فقال : كل وإن لم يبق منه إلا حذية ، يعني بضعة ، ورواه شعبة عن عبد ربه بن سعيد ، عن بكير بن الأشج ؛ عن سعيد بن المسيب ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال : كل وإن أكل ثلثه .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود عن عامر ، عن أبي هريرة ، قال : إذا أرسلت كلبك فأكل منه ، فإن أكل ثلثه وبقي ثلثه فكله . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر قال : سمعت عبد الله ، وحدثنا هناد ، حدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر قال : إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك ، أكل أو لم يأكل ؛ وكذا رواه عبيد الله بن عمر وابن أبي ذئب وغير واحد عن نافع ؛ فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر ، وهو محكي عن علي وابن عباس ، واختلف فيه عن عطاء والحسن البصري ، وهو قول الزهري وربيعه ومالك ، وإليه ذهب الشافعي في القديم وأوماً إليه في الجديد .

وقد روي من طريق سلمان الفارسي مرفوعاً ، فقال ابن جرير : حدثنا عمران بن بكار الكلاعي ، حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاهوني ، حدثنا محمد بن دينار وهو الطاجي عن أبي إياس معاوية بن قرة ، عن سعيد بن المسيب ، عن سلمان الفارسي ، عن رسول الله ﷺ قال «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه فليأكل ما بقي» ثم قال ابن جرير : وفي إسناد هذا الحديث نظر ، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان ، والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع ، وهذا الذي قاله ابن جرير صحيح ، لكن قد روي هذا المعنى مرفوعاً من وجوه آخر ؛ فقال أبو داود : حدثنا محمد بن منهل الضرير ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال : يارسول الله ، إن لي كلاباً مكلبة ، فأفتني في صيدها ؛ فقال النبي ﷺ «إن كان لك كلاب مكلبة ، فكل مما أمسك عليك» فقال : ذكياً وغير ذكي ، وإن أكل منه ؟ قال «نعم وإن أكل منه» فقال : يارسول الله : أفتني في قوسي ؛ قال «كل ما ردت عليك فوسك» قال : ذكياً وغير ذكي ؟ قال «وإن تغيب عنك مالم يصل أو تجد فيه أثر غير سهمك» قال : أفتني في آنية المجوس إذا اضطرننا إليها ، قال «اغسلها وكل فيها» هكذا رواه أبو داود ، وقد أخرجه النسائي ، وكذا رواه أبو داود من طريق يونس بن سيف ، عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ثعلبة ، قال : قال رسول الله ﷺ «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل ، وإن أكل منه وكل ما ردت عليك يدك» وهذا إسنادان جيدان ، وقد روى الثوري عن سماك بن حرب ، عن عدي قال : قال رسول الله ﷺ «ما كان من كلبك ضار أمسك عليك فكل» قلت : وإن أكل ؟ قال «نعم» . وروى عبد الملك بن حبيب : حدثنا أسد بن موسى عن ابن أبي زائدة ، عن الشعبي ، عن عدي بمثله ، فهذه آثار دالة على أنه يغتفر ، وإن أكل منه الكلب ، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه ، كما تقدم عن حكيمه عنهم ، وقد توسط آخرون فقالوا : إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدي بن حاتم ، وللعلة التي أشار إليها النبي ﷺ «فإن أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه» وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه ، فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني . وهذا تفريق حسن ، وجمع بين الحديثين صحيح .

وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه النهاية أن لو فصل مفصل هذا التفصيل وقد حقق الله أمنيته ، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم . وقال آخرون قولاً رابعاً في المسألة وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي ، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل ، وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن حماد ، عن إبراهيم ، عن ابن عباس أنه قال في الطير إذا أرسلته فقتل فكل ، فإن الكلب إذا ضربته لم يعد وإن تعلم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب ، فإذا أكل من الصيد وتنف الريش فكل ، وكذا قال إبراهيم النخعي والشعبي وحماد بن أبي سليمان ، وقد يحتج هؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم ، حدثنا

أبو سعيد ، حدثنا المحاربي ، حدثنا مجالد عن الشعبي ، عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إنا قوم نصيد بالكلاب والبيزاة ، فما يجعل لنا منها ؟ قال «يجعل لكم ما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ثم قال ما أرسلت من كلب وذكر اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك» قلت : وإن قتل ؟ قال «وإن قتل ما لم يأكل» قلت : يا رسول الله ، وإن خالطت كلابنا كلاباً غيرها ؟ قال «فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذي أمسك» . قال : قلت : إنا قوم نرمي فما يجعل لنا ؟ قال «ما ذكرت اسم الله عليه وخزقت فكل» . فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب أن لا يأكل ، ولم يشترط ذلك في البيزاة ، فدل على التفرقة بينهما في الحكم ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند إرساله له كما قال النبي ﷺ لعدي بن حاتم «إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله ، فكل ما أمسك عليك» ، وفي حديث أبي ثعلبة المخزرجي في الصحيحين أيضاً «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله ، وإذا رميت بهمك فاذكر اسم الله» ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه ، التسمية عند إرسال الكلب ، والرمي بالسهم ، لهذه الآية وهذا الحديث ، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال كما قال السدي وغيره ؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ يقول : إذا أرسلت جارحك فقل : باسم الله ، وإن نسيت فلا حرج ؛ وقال بعض الناس : المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل ؛ كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك» . وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا : يا رسول الله ، إن قوماً يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها ؟ أم لا ؟ فقال «سموا الله أنتم وكلوا» .

[حديث آخر] - وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا هشام عن بديل ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين ، فقال النبي ﷺ «أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفأكم ، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليذكر اسم الله ، فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله ، فليقل : باسم الله أوله وآخره» ؛ هكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يزيد بن هارون به ؛ وهذا منقطع بين عبد الله بن عبيد بن عمير وعائشة فإنه لم يسمع منها هذا الحديث بدليل ما رواه الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب ، أخبرنا هشام يعني ابن أبي عبد الله الدستوائي ، عن بديل ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير : أن امرأة منهم يقال لها أم كلثوم حدثته عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين ؛ فقال «أما إنه لو ذكر اسم الله لكفأكم ، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله ، فإن نسي اسم الله في أوله ، فليقل باسم الله أوله وآخره» رواه أحمد أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي من غير وجه عن هشام الدستوائي به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

[حديث آخر] - وقال أحمد : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا جابر بن صبيح ، حدثني المثني بن عبد الرحمن الخزاعي وصحبه الى واسط ، فكان يسمى في أول طعامه ، وفي آخر لقمة يقول : باسم الله أوله وآخره ، فقلت له : إنك تسمي في أول ما تأكل ، أرأيت قولك في آخر ما تأكل باسم الله أوله وآخره ؟ فقال : أخبرك أن جدي أمية بن مخشي وكان من أصحاب النبي ﷺ سمعته يقول : إن رجلاً كان يأكل والنبي ينظر فلم يسم حتى كان آخر طعامه لقمة ، قال : باسم الله أوله وآخره ؛ فقال النبي ﷺ «والله ما زال الشيطان يأكل معه حتى سمى ، فلم يبق شيء في بطنه حتى قاء» وهكذا رواه أبو داود والنسائي من حديث جابر بن صبيح الراسبي أبي بشر البصري ، وثقه ابن معين والنسائي ، وقال أبو الفتح الأزدي : لا تقوم به حجة .

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن خيثمة عن أبي حذيفة - قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب - من أصحاب ابن مسعود ، عن حذيفة ، قال : كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ، وإنا حضرنا معه طعاماً ، فجاءت جارية كأنها تدفع فذهبت تضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، وجاء أعرابي كأنه يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله ﷺ بيده ، فقال رسول الله ﷺ «إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه ؛ وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، وجاء هذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده ، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدهما» يعني الشيطان ، وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي ، من حديث الأعمش به .

[حديث آخر] - روى مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذي من طريق ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد

الله عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله ، قال الشيطان : أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه ، قال : أدركتم المبيت والعشاء » لفظ أبي داود .

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن وحشي بن حرب عن أبيه ، عن جده ، أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال « فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله بيارك لكم فيه » ورواه أبو داود ، وابن ماجه ، من طريق الوليد بن مسلم .

أَيُّومٍ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ

بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين ، من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات . قال بعده ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين ، من اليهود والنصارى فقال ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة وعطاء والحسن ، ومكحول وإبراهيم النخعي ، والسدي ومقاتل بن حيان : يعني ذبائحهم ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ؛ إن ذبائحهم حلال للمسلمين ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبيح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه ، تعالى وتقدس .

وقد ثبت في الصحيح : عن عبد الله بن مغفل ، قال : أدلى بجراب من شحم يوم خيبر ؛ فحضسته وقلت : لا أعطي اليوم من هذا أحداً ، والتفت فإذا النبي ﷺ يتسم ، فاستدل به الفقهاء ، على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة ، قبل القسمة ، وهذا ظاهر ، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة ، على أصحاب مالك في منعهم ، أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم ، كالشحم ونحوها مما حرم عليهم ، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله ، لقوله تعالى ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ قالوا : وهذا ليس من طعامهم ، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث ، وفي ذلك نظر ، لأنه قضية عين ، ويحتمل أن يكون شحمياً ، يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوها ، والله أعلم ، وأجود منه في الدلالة ؛ ما ثبت في الصحيح ، أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية ، وقد سماها ذراعها وكان يعجبه الذراع ، فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه ، وأثر ذلك في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أمهه ، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات ، فقتل اليهودية التي سمها ، وكان اسمها زينب ، ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها معه ، ولم يسألهم هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا .

وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ ، أضافه يهودي ، على خبز شعير وأهالة سنخة ، يعني ودكا زنخا ، وقال ابن أبي حاتم : قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد ، أخبرنا محمد بن شعيب ، أخبرني النعمان بن المنذر ، عن مكحول قال : أنزل الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ثم نسخه الرب عز وجل ، ورحم المسلمين فقال ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ فنسخها بذلك ، وأحل طعام أهل الكتاب ، وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظر ، فإنه لا يلزم من إباحته ، طعام أهل الكتاب ؛ إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم ، وهم متعبدون بذلك ، ولهذا لم يبع ذبائح من عددهم من أهل الشرك ، ومن شابههم ، لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم ، بل ولا يتوقفون فيها يأكلونه من اللحم على ذكاة ، بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة ومن يتمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء ، على أحد قولي العلماء ونصارى العرب ، كيني تغلب وتيوخ وهدا وجذام ولحم وعاملة ومن أشبههم ، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، عن أيوب ، عن محمد بن عبيدة ، قال : قال علي : لا تأكلوا ذبائح بني تغلب ، لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر ، وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف . وقال سعيد بن أبي عروبة : عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب والحسن ، أنها كانا لا يريان بأساً بذيبيحة نصارى بني تغلب . وأما المجوس ، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعاً وإلحاقاً لأهل الكتاب ، فإنه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، خلافاً لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي ، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل . ولما قال

ذلك واشتهر عنه ، أنكر عليه الفهاء ذلك ، حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه ، يعني في هذه المسألة ، وكأنه تمسك بعموم حديث روي مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال «سئوا بهم سنة أهل الكتاب» ولكن لم يثبت بهذا اللفظ ، وإنما الذي في صحيح البخاري ، عن عبد الرحمن بن عوف ، أن رسول الله ﷺ ، أخذ الجزية من مجوس هجر ، ولو سلم صحة هذا الحديث ، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية «وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» فدل بمفهومه مفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان ، لا يحل . وقوله تعالى : «وطعامكم حل لهم» أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، وليس هذا إخبارًا عن الحكم عندهم ، اللهم إلا أن يكون خبرًا عما أمروا به ، من الأكل من كل طعام ، ذكر اسم الله عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها ، والأول أظهر في المعنى ، أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول ، حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه ، فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك ، فاما الحديث الذي فيه «لا تصحب إلا مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي» فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم .

وقوله : «والمحصنات من المؤمنات» أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده ، وهو قوله تعالى : «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» فقليل أراد بالمحصنات الحرائر ، دون الإماء ، حكاه ابن جرير عن مجاهد ، وإنما قال مجاهد : المحصنات الحرائر ، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه ، ويحتمل أن يكون أراد بالحرّة العفيفة ، كما قال في الرواية الأخرى عنه ، وهو قول الجمهور ههنا ، وهو الأشبه ، لثلا يجتمع فيها أن تكون ذمية ، وهي مع ذلك غير عفيفة ، فيفسد حالها بالكلية ، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل : «حشفًا وسوء كيلة» والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات العفيفات عن الزنى ، كما قال تعالى في الآية الأخرى «محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان» ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى : «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» هل يعم كل كتابية عفيفة ، سواء كانت حرة أو أمة ، حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ، ممن فسر المحصنة بالعفيفة ، وقيل : المراد بأهل الكتاب ههنا الأسرانيات ، وهو مذهب الشافعي . وقيل : المراد بذلك الذميات دون الحريات ، لقوله : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» الآية ، وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى الترويج بالنصرانية ، ويقول : لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول إن ربها عيسى ، وقد قال الله تعالى : «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» الآية .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب ، حدثنا القاسم بن مالك يعني المزني ، حدثنا إسماعيل بن سميع ، عن أبي مالك الغفاري ، عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية : «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» فنكح الناس نساء أهل الكتاب ، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ، ولم يروا بذلك بأسًا أخذًا بهذه الآية الكريمة «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» فجعلوا هذه مخصصة لثني في سورة البقرة «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها ، وإلا فلا معارضة بينها وبينها ، لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع ، كقوله تعالى : «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة» وكقوله : «وقل للذين أوتوا الكتاب والأمةين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا» الآية .

وقوله : «إذا آتيتوهن أجورهن» أي مهورهن ، أي كما هن محصنات عفائف فابدلوا هن المهور عن طيب نفس ، وقد أفتى جابر بن عبد الله وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصري ، بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينها ، وترد عليه ما بذل لها من المهر ، رواه ابن جرير عنهم .
وقوله : «محصنين غير مسافحين ولا متخذين أخدان» فكما شرط الإحصان في النساء ، وهي العفة عن الزنى ، كذلك شرطها في الرجال ، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً ، ولهذا قال : غير مسافحين ، وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عن مجرم ، ولا متخذين أخدان ، أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن ، كما تقدم في سورة النساء مواء ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب ، ومادامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف ، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقبل عما هو فيه من الزنى لهذه الآية وللحديث «لا يتكح الزاني المجلود إلا مثله» ؛ وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا أبو هلال عن قتادة ، عن الحسن ، قال : قال عمر بن الخطاب : لقد هممت أن

لا أدع أحداً أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة ؛ فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب ؛ وسبأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله : ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَسْتَمِعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

قال كثيرون من السلف في قوله : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ : يعني وأنتم محدثون ؛ وقال آخرون : إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك ، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المطهر نذبة ؛ وقد قيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ ؛ وقال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه ، قال : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح علي خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله . قال «إني عمدا فعلته بإعمره ؛ وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد ؛ ووقع في سنن ابن ماجه عن سفيان ، عن محارب بن دثار بدل علقمة بن مرثد ، كلاهما عن سليمان بن بريدة به ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي ، حدثنا الفضل بن المبرقع قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلي ، الصلوات بوضوء واحد ؛ فإذا بال أو أحدث ، توضأ ومسح بفضل ظهوره الخفين ، فقلت : أبا عبد الله ، أشيء تصنعه برايك ؟ قال : بل رأيت النبي ﷺ يصنعه ، فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه ؛ وكذا رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن توبة ، عن زياد البكائي به . وقال أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن ابن إسحاق ، حدثني محمد بن يحيى بن حبان الأنصاري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، قال : رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهرا كان أو غير طاهر ، عمن هو ؟ قال : حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن النسيب ، حدثها أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهر كان أو غير طاهر ، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث ، فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك كان يفعله حتى مات ؛ وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عوف الحمصي عن أحمد بن خالد الذهبي ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن يحيى بن حبان ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ؛ ثم قال أبو داود : ورواه إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق ، فقال عبيد الله بن عمر : يعني كما تقدم في رواية الإمام أحمد ، وأيا ما كان ، فهو إسناد صحيح ، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى بن حبان ، فزال محذور التدليس ، لكن قال الحافظ بن عساكر : رواه سلمة بن الفضل وعلي بن مجاهد عن ابن إسحاق ، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة ، عن محمد بن يحيى بن حبان به ، والله أعلم ؛ وفي فعل ابن عمر هذا ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك ، كما هو مذهب الجمهور .

وقال ابن جرير : حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة ، حدثنا أزهر عن ابن عون ؛ عن ابن سيرين : أن الخلفاء كانوا يتوضؤون لكل صلاة ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن المثني ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت مسعود بن علي الشيباني ، سمعت عكرمة يقول : كان علي رضي الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ الآية ؛ وحدثنا ابن المثني ، حدثني وهب بن جرير ، أخبرنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة ، عن النزال بن سيرة قال : رأيت عليا صلى الظهر ثم قعد للنامس في الرحبة ، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ، ثم

مسح برأسه ورجليه ، وقال : هذا وضوء من لم يحدث ؛ وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم عن مغيرة ، عن إبراهيم : أن علياً أكتال من حب ، فتوضأ وضوءاً فيه تجوز ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث ، وهذه طرق جيدة عن علي يقوي بعضها بعضاً .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا ابن يسار ، حدثنا ابن أبي عدي عن حميد ، عن أنس ، قال : توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث ، وهذا إسناد صحيح . وقال محمد بن سيرين : كان الخلفاء يتوضأون لكل صلاة ؛ وأما ما رواه أبو داود الطيالسي عن أبي هلال ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : الوضوء من غير حدث اعتداء ، فهو غريب عن سعيد بن المسيب ، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد ؛ وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان عن عمرو بن عامر الأنصاري ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال : كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث ؛ وقد رواه البخاري وأهل السنن من غير وجه عن عمرو بن عامر به . وقال ابن جرير : حدثنا أبو سعيد البغدادي ، حدثنا إسحاق بن منصور عن هزيم ، عن عبد الرحمن بن زياد ، هو الأفريقي ، عن أبي عطيف ، عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ «من توضأ على طهر ، كتب له عشر حسنات» ورواه أيضاً من حديث عيسى بن يونس عن الأفريقي ، عن أبي عطيف ، عن ابن عمر ، فذكره ؛ وفيه قصة . وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، من حديث الأفريقي به نحوه . وقال الترمذي : وهو إسناد ضعيف . وقال ابن جرير : وقد قال قوم : إن هذه الآية نزلت إعلماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال ، وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ . حدثنا أبو كريب ، حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان ، عن جابر ، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم ، عن عبد الله بن علقمة بن وقاص ، عن أبيه ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ، ونسلم عليه فلا يرد علينا ، حتى نزلت آية الرخصة «يأياها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة» الآية ؛ ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم عن أبي كريب به نحوه ؛ وهو حديث غريب جداً ، وجابر هذا هو ابن زيد الجعفي ضعفه .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبي مليكة ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام ، فقالوا : ألا تأتيك بوضوء ؟ فقال «إنما أمرت بالوضوء إذا قمتم إلى الصلاة» ، وكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع ، والنسائي عن زياد بن أيوب عن إسماعيل وهو ابن عليه به وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وروى مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن الحويرث ، عن ابن عباس قال : كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء ثم إنه رجع فأتى بطعام ، فقيل : يا رسول الله ألا تتوضأ ؟ فقال «لم أصل فأتوضأ» .

وقوله «فاغسلوا وجوهكم» قد استدلت طائفة من العلماء بقوله تعالى : «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم» على وجوب النية في الوضوء ، لأن تقدير الكلام «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم» لها كما تقول العرب : إذا رأيت الأمير فقم ، أي له . وقد ثبت في الصحيحين حديث «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» ، ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه ، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة ، عن النبي ﷺ أنه قال : «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» ، ويستحب أن يغسل فيه قبل إدخالها في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم ، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً ، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده» وحد الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس ، ولا اعتبار بالصلع ولا بالغنم إلى منتهى اللحيين والذقن طولاً ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً وفي التزتين والتحفيف خلاف : هل هما من الرأس أو الوجه ؟ وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض ، قولان [أحدهما] أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة .

وروي في حديث أن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته فقال «اكشفها فإن اللحية من الوجه» وقال مجاهد : هي من الوجه ، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام : إذا نبتت لحيته طلع وجهه ، ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا إسرائيل عن عامر بن حمزة ، عن شقيق قال : رأيت عثمان توضأ ، فذكر الحديث ؛ قال : وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتوني فعلت ؛ رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عبد الرزاق ؛ وقال الترمذي : حسن صحيح ، وحسنه البخاري .

وقال أبو داود : حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع ، حدثنا أبو المليح ، حدثنا الوليد بن زوران ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ ، أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته ، وقال «هكذا أمرني به ربي عز وجل» تفرد به أبو داود ؛ وقد روي هذا الوجه من غير وجه عن أنس ، قال البيهقي : وروينا في تحليل اللحية عن عمار وعائشة وأم سلمة ، عن النبي ﷺ ، ثم عن علي وغيره ، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر والحسن بن علي ، ثم عن النخعي وجماعة من التابعين ؛ وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق ، فاختلف الأئمة في ذلك هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله ، أو مستحبان فيها كما هو مذهب الشافعي ومالك ، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن ، وصححه ابن خزيمة عن رفاعة بن رافع الزرقي أن النبي ﷺ قال للمسيء صلته «توضأ كما أمرك الله» ، أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة ، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد ، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «من توضأ فليستشق» ، وفي رواية «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريه من الماء ثم ليتثر» والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو سلمة الخزاعي ، حدثنا سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه ، أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ، ثم أخذ غرفة فغسل بها هكذا ، يعني أضافها إلى يده الأخرى ، فغسل بها وجهه ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ، ثم مسح رأسه ، ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ ، يعني يتوضأ . ورواه البخاري عن محمد بن عبد الرحيم عن أبي سلمة منصور بن سلمة الخزاعي به .

وقوله ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي مع المرافق كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّه كَانَ حِوْبًا كَبِيرًا﴾ وقد روى الحافظ الدارقطني وأبو بكر البيهقي من طريق القاسم بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جده ، عن جابر بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه ، ولكن القاسم هذا متروك الحديث ، وجده ضعيف ، والله أعلم .

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه لما روى البخاري ومسلم من حديث نعيم المجرم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء» ، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل» وفي صحيح مسلم عن قتادة عن خلف بن خليفة ، عن أبي مالك الأشجعي ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : سمعت خليلي ﷺ يقول «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء» . وقوله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء : هل هي للإلصاق ؟ وهو الأظهر ، أو للتبعض ؟ وفيه نظر ، على قولين . ومن الأصوليين من قال : هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة ؛ وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني ، عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم ، وهو جد عمرو بن يحيى ، وكان من أصحاب النبي ﷺ : هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم فدعا بوضوء فأفرغ على يديه ، فغسل يديه مرتين مرتين ، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً ، وغسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ، ثم مسح رأسه بيديه ، فأقبل بها وأدبر بدأ بمقدم رأسه ، ثم ذهب بها إلى قفاه ، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه ، ثم غسل رجليه . وفي حديث عبد خير عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا ، وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكره في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله ؛ ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس ، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لاسيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجل في القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربيع الرأس ، وهو مقدار الناصية ؛ وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزاءه ، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبه قال : تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه ، فلما قضى حاجته قال : هل معك ماء ؟ فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كم الجبة ، فأخرج يديه من تحت الجبة ، وألقى الجبة على منكبيه ، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته ، وعلى العمامة وعلى خفيه ؛ وذكر باقي الحديث وهو في صحيح مسلم وغيره ، فقال لهم أصحاب الإمام أحمد : إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ، ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموضع ؛ كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين ، فهذا أولى ، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح

النافية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة ، والله أعلم .
ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً ، كما هو المشهور من مذهب الشافعي ، وإنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين ؛ فقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن حمران بن أبان ، قال : رأيت عثمان بن عفان توضعاً فأفرغ على يديه ثلاثاً ، فغسلها ثم تمضمض واستنشق ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ، ثم غسل اليسرى مثل ذلك ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً ، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضعاً نحو وضوئي هذا ، ثم قال «من توضعاً نحو وضوئي هذا ، ثم صل ركعتين لا يحدث فيها نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من طريق الزهري به نحو هذا . وفي سنن أبي داود من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة ، عن عثمان في صفة الوضوء : ومسح برأسه مرة واحدة ؛ وكذا من رواية عبد خير عن علي مثله . واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ توضعاً ثلاثاً ثلاثاً .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن المنثي ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا عبد الرحمن بن وردان ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، حدثني حمران قال : رأيت عثمان بن عفان توضعاً فذكر نحوه ، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق ، قال فيه : ثم مسح رأسه ثلاثاً ، ثم غسل رجليه ثلاثاً ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضعاً هكذا ؛ وقال «من توضعاً هكذا كفاه» تفرد به أبو داود . ثم قال : وأحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة . قوله «وأرجلكم إلى الكعبين» قرئ وأرجلكم بالنصب عطفاً على فاعلوا وجوهكم وأيديكم . قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا وهيب بن خالد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قرأها وأرجلكم ، يقول : رجعت إلى الغسل ؛ وروي عن عبد الله بن مسعود وعروة وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وإبراهيم والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان والزهري وإبراهيم التيمي نحو ذلك ؛ وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل ؛ كما قاله السلف ، ومن هنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب ، بل لو غسل قدميه ، ثم مسح رأسه ، وغسل يديه ، ثم وجهه ، أجزاء ذلك ، لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء ، والواو لا تدل على الترتيب ؛ وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقتاً ؛ فمنهم من قال : الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة ، لأنه مأمور به بفناء التعقيب وهي مقتضية للترتيب ، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ، ثم لا يجب الترتيب بعده ، بل القائل اثنان : أحدهما بوجوب الترتيب كما هو واقع في الآية ، والآخر يقول : لا يجب الترتيب مطلقاً ؛ والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء ، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق .

ومنهم من قال : لا نسلم أن الواو لا تدل على الترتيب ، بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء ، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما شأنه أن يرتب ، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى : «إن الصفا والمروة من شعائر الله» ، ثم قال «أبدأ بما بدأ الله به» لفظ مسلم ؛ ولفظ النسائي «أبدوا بما بدأ الله به» وهذا لفظ أمر ، وإسناده صحيح ، فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به ، وهذا لفظ أمر ، وإسناده صحيح ، فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به ، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً ، والله أعلم .

ومنهم من قال لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب ، فقطع النظر عن النظر ، وأدخل المسوح بين المفسولين ، دل ذلك على إرادة الترتيب ، ومنهم من قال : لاشك أنه قد روى أبو داود وغيره من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده أن رسول الله ﷺ توضعاً مرة مرة ، ثم قال «هذا وضوءه لا يقبل الله الصلاة إلا به» قالوا : فلا يخلو إما أن يكون توضعاً مرتباً فيجب الترتيب ، أو يكون توضعاً غير مرتب فيجب عدم الترتيب ، ولا قائل به ، فوجب ما ذكرناه .

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ : وأرجلكم بالخفض ، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين ، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . وقد روي عن طائفة من السلف ما يؤهم القول بال مسح فقال ابن جرير : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، حدثنا حميد قال : قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده : يا أبا حمزة ، إن الحاجب خطبنا بالأهواز ونحن معه ، فذكر الطهور فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم ، وامسحوا برؤوسكم

وأرجلكم ، وإنه ليس شيء من بني آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما ؛ فقال أنس : صدق الله ، وكذب الحجاج ، قال الله تعالى : ﴿وَامْسَحُوا برءومكم وأرجلكم﴾ قال : وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما ، إسناد صحيح إليه . وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا مؤمل ، حدثنا حماد ، حدثنا عاصم الأحول عن أنس قال : نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل ؛ وهذا أيضاً إسناد صحيح . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا محمد بن قيس الخراساني عن ابن جريج ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الوضوء غسلتان ومسحتان ؛ وكذا روى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ؛ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو معمر المنقري ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ﴿وَامْسَحُوا برءومكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ قال : هو المسح ، ثم قال : وروي عن ابن عمر وعلقمة وأبي جعفر محمد بن علي والحسن في إحدى الروايات ، وجابر بن زيد ومجاهد في إحدى الروايات ، نحوه .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن علية ، حدثنا أيوب قال : رأيت عكرمة يمسح على رجله ، قال : وكان يقوله . وقال ابن جرير : حدثني أبو السائب ، حدثنا ابن إدريس عن داود بن أبي هند ، عن الشعبي قال : نزل جبريل بالمسح ، ثم قال الشعبي : ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً . وحدثنا ابن أبي زياد ، حدثنا يزيد ، أخبرنا اسماعيل قلت لعامر : إن ناساً يقولون : إن جبريل نزل بغسل الرجلين ؟ فقال : نزل جبريل بالمسح ، فهذه آثار غريبة جداً ، وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين ، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام كما في قول العرب : جحر ضب خرب ، وكقوله تعالى : ﴿عاليتهم ثياب سندس خضر واستبرق﴾ وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ . ومنهم من قال : هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليها الخفان ، قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله . ومنهم من قال : هي دالة على مسح الرجلين ، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة ؛ وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا يبد منه لآية والأحاديث التي سنوردها ؛ ومن أحسن ما يستدل على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي حيث قال : أخبرنا أبو علي الروزبادي ، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حمويه العسكري ، حدثنا جعفر بن محمد القلانسي ، حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد الملك بن ميسرة ، سمعت الزال بن سيرة يحدث عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر ، ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ، ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة ، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم ، ثم قال : إن ناساً يكرهون الشرب قائماً ، وأن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ؛ وقال «هذا وضوء من لم يحدث» ، رواه البخاري في الصحيح عن آدم ببعض معناه . ومن أوجب من الشيعة مسحها كما يمسح الخف فقد ضل وأضل ، وكذا من جوز مسحها وجوز غسلها فقد أخطأ أيضاً ؛ ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلها للأحاديث ، وأوجب مسحها لآية ؛ فلم يحقق مذهبه في ذلك ، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء ، لأنها يليان الأرض والطين وغير ذلك ، فأوجب ذلكها ليذهب ما عليها ، ولكنه عبر عن ذلك بالمسح ، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحها ، فحكاها من حكاها كذلك ، ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور ، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل ، سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه ، وإنما أراد الرجل ما ذكرته ، والله أعلم ؛ ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله ﴿وأرجلكم﴾ خفضاً على المسح وهو كذلك ، ونصباً على الغسل ، فأوجبها أخذاً بالجمع بين هذه وهذه .

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا يبد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلي وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معد يكره ، أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرة ، وإما مرتين أو ثلاثاً ، على اختلاف رواياتهم ؛ وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ، ثم قال «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به» .

وفي الصحيحين من رواية أبي عوانة عن أبي بشر ، عن يوسف بن ماهك ، عن عبد الله بن عمرو قال : تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها ، فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة ، صلاة العصر ، ونحن نتوضأ ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته «أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار» وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة . وفي صحيح

مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال «أسبغوا الوضوء وويل للأعقاب من النار» وروى الليث بن سعد عن حيوة بن شريح ، عن عقبة بن مسلم ، عن عبد الله بن الحارث بن حرز أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «ويل للأعقاب ويطون الأقدام من النار» ، رواه البيهقي والحاكم ؛ وهذا إسناد صحيح . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق أنه سمع سعيد بن أبي كرب أو شعيب بن أبي كرب قال : سمعت جابر بن عبد الله وهو على جبل يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ويل للعراقيب من النار» وحدثنا أسود بن عامر ، أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن أبي كرب ، عن جابر بن عبد الله قال : رأى النبي ﷺ في رجل رجل مثل الدرهم لم يغسله ، فقال «ويل للأعقاب من النار» ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن نحوه .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وغير واحد ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن سعيد بن أبي كريب ، عن جابر عن النبي ﷺ مثله . ثم قال : حدثنا علي بن مسلم ، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثنا حفص عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى قوماً يتوضئون لم يصب أعقابهم الماء ، فقال «ويل للعراقيب من النار» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا أيوب بن عقبة عن يحيى بن كثير ، عن أبي سلمة ، عن معيقب ، قال : قال رسول الله ﷺ «ويل للأعقاب من النار» تفرد به أحمد .

وقال ابن جرير : حدثني علي بن عبد الأعلى ، حدثنا المحاربي عن مطروح بن يزيد ، عن عبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ «ويل للأعقاب من النار» . قال : فما بقي في المسجد شريف ولا وضيع إلا نظرت إليه يقلب عرقوبيه ، ينظر إليهما . وحدثنا أبو كريب ، حدثنا حسين عن زائدة عن ليث ، حدثني عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة أو عن أخي أبي أمامة : أن رسول الله ﷺ أبصر قوماً يصلون ، وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم ، مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسه الماء ، فقال «ويل للأعقاب من النار» . قال : فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء ، أعاد وضوءه .

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة ، وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنه يجوز ذلك فيها لما تواعد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف ؛ وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى ، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي الزبير عن جابر ، عن عمر بن الخطاب : أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه ، فأبصره النبي ﷺ وقال «ارجع فأحسن وضوءك» . وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا محمد بن إسحاق الصنعاني ، حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا جرير بن حازم أنه سمع قتادة بن دعامة ، قال : حدثنا أنس بن مالك أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر ، فقال له رسول الله ﷺ «ارجع فأحسن وضوءك» . وهكذا رواه أبو داود عن هارون بن معروف وابن ماجه عن حرملة ويحيى ، كلاهما عن ابن وهب به . وهذا إسناد جيد ، رجاله كلهم ثقات ، لكن قال أبو داود : ليس هذا الحديث بمعروف ، لم يروه إلا ابن وهب . وحدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، أخبرنا يونس ومحمد بن الحسن : أن رسول الله ﷺ ، بمعنى حديث قتادة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبي العباس ، حدثنا بقرية ، حدثني يحيى بن سعد عن خالد بن معدان ، عن بعض أزواج النبي ﷺ : رأى رجلاً يصلي ، وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء ، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء . ورواه أبو داود من حديث بقرية ، وزاد : والصلاة . وهذا إسناد جيد قوي صحيح ، والله أعلم .

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل بين أصابعه . وروى أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير عن عاصم بن لقيط بن صبرة ، عن أبيه قال : قلت : يارسول الله ﷺ أخبرني عن الوضوء . فقال «أسبغ الوضوء ، واخلل بين الأصابع ، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً» .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن يزيد أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا عكرمة بن عمار ، حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال : قال أبو أمامة : حدثنا عمرو بن عبسة قال : قال : يارسول الله ، أخبرني عن الوضوء . قال «مامنكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق ويتنثر إلا خرجت خطاياها من فمه وخياشيمه ، مع الماء حين ينتثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرجت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرجت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسح رأسه إلا خرجت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما

أمره الله إلا خرجت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ، ثم يقوم فيحمد الله ويشي عليه بالذي هو له أهل ، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

قال أبو أمامة : يا عمرو ، يا عمرو ، انظر ما تقول ، سمعت هذا من رسول الله ﷺ أعطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ فقال عمرو بن عتبة : يا أبا أمامة ، لقد كبرت سني ، ورق عظمي ، واقترب أجلي ، وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك ؛ وهذا إسناد صحيح .

وهو في صحيح مسلم من وجه آخر ، وفيه : ثم يغسل قدميه كما أمره الله ، فدل على أن القرآن يأمر بالغسل . وهكذا روى أبو إسحاق السبيعي عن الحارث ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم ، ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في النعلين ، فدلكهما ، إنما أراد غسلًا خفيفًا ، وهما في النعلين ، ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها ، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنظفين من الموسوسين .

وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه ، وهو من روايته عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حذيفة قال : أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم ، فبال قائمًا ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه ، وهو حديث صحيح وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ روه عن الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حذيفة ، قال : فبال قائمًا ثم توضأ ومسح على خفيه ، قلت : ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان وعليهما نعلان ؛ وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى عن شعبة ، حدثني يعلى عن أبيه ، عن أوس بن أبي أوس ، قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه ، ثم قام إلى الصلاة . وقد رواه أبو داود عن مسدد وعبيد بن موسى ، كلاهما عن هشيم ، عن يعلى بن عطاء ، عن أبيه ، عن أوس بن أبي أوس قال : رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم ، فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه . وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ومن طريق هشيم ، ثم قال : وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث ، إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة ، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه ، ولما كان القرآن أمرًا بغسل الرجلين كما في قراءة النصب ، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها ، توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين ، وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب ، ولكن لم يصح إسناده ، ثم الثابت عنه خلافه ، وليس كما زعموه ، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا زياد بن عبد الله بن عثمة عن عبد الكريم بن مالك الجزري ، عن مجاهد ، عن جرير بن عبد الله البجلي قال : أنا أسلمت بعد نزول المائدة ، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت ، تفرد به أحمد . وفي الصحيحين من حديث الأعمش عن إبراهيم ، عن همام قال : بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه ؛ فقيل : تفعل هذا ؟ فقال : نعم ، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه ؛ قال الأعمش : قال إبراهيم : فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة ، لفظ مسلم . وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا ، كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه ، أو التفصيل فيه ، كما هو مبسوط في موضعه .

وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند بل بجهد وضلال ، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ النبي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر ، والله الحمد ، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين فعندهم أنها في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب ، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم . قال الربيع : قال الشافعي : لم أعلم مخالفًا في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتان ، وهما مجمع مفصل الساق والقدم ، هذا لفظه ؛ فعند الأئمة رحمهم الله : في كل قدم كعبان ، كما هو المعروف عند الناس ، وكما دلت عليه السنة ، ففي الصحيحين من طريق حمران عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين ، واليسرى مثل ذلك .

وروى البخاري تعليقًا مجزومًا به ، وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه من رواية أبي القاسم الحسيني بن الحارث

الجدلي ، عن النعمان بن بشير قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم» قال : فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه ، وركبته بركبة صاحبه ، ومنكبه بمنكبه ، لفظ ابن خزيمة ، فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه ، إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق حتى يجاذي كعب الآخر ، فدل ذلك على ما ذكرناه من أنها العظام الناتئان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة . وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إسماعيل بن موسى ، أخبرنا شريك عن يحيى بن الحارث التيمي يعني الحارث ، قال : نظرت في قتل أصحاب زيد ، فوجدت الكعب فوق ظهر القدم ، وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم ، تنكيلاً بهم في مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه .

وقوله تعالى : ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء ، فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام . وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك ، لكن البخاري روى ههنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة فقال : حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه عن أبيه ، عن عائشة قالت : سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأنافخ رسول الله ﷺ ونزل ، فثنى رأسه في حجره راقداً ، فأقبل أبو بكر فلكرني لكزة شديدة وقال : حبست الناس في قلادة ، فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني ، وقد أوجعني ؛ ثم إن النبي ﷺ استيقظ ، وحضرت الصبح ، فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ إلى آخر الآية ؛ فقال أسيد بن الحضير : لقد بارك الله للناس فيكم يال أي بكر ما أنتم إلا بركة لهم .

وقوله تعالى : ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ، ورحمة بكم ، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه ، وكما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير . وقوله تعالى : ﴿ولكن يريد ليظركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ أي لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والراقة والرحمة والتسهيل والسماحة ، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة ، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبه بن عامر قال : كانت علينا رعاية الإبل ، فجاءت نوبتي فروحتها بعشي ، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس ، فأدركت من قوله «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ، ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلاً عليها بقلبه ووجهه ، إلا وجبت له الجنة» قال : قلت : ما أجود هذه ، فإذا قاتل بين يدي يقول : التي قبلها أجود منها ، فنظرت فإذا عمر رضي الله عنه فقال : إني قد رأيتك جثت آنفاً قال «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو يسيغ الوضوء ، يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الشمالية ، يدخل من أيها شاء» لفظ مسلم .

وقال مالك عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه ، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرج نقياً من الذنوب» رواه مسلم عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب ، عن مالك به . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان ، عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن كعب بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ «ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه أو ذراعيه ، إلا خرجت خطاياها منها ، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياها من وجهه ، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياها من رأسه ، فإذا غسل رجليه خرجت خطاياها من رجليه» هذا لفظه . وقد رواه الإمام أحمد عن محمد بن جعفر ، عن شعبة ، عن منصور ، عن سالم ، عن مرة بن كعب أو كعب بن مرة السلمى ، عن النبي ﷺ قال «وإذا توضأ العبد فغسل يديه خرجت خطاياها من بين يديه ، وإذا غسل وجهه خرجت خطاياها من وجهه ، وإذا غسل ذراعيه خرجت خطاياها من ذراعيه ، وإذا غسل رجليه خرجت خطاياها من رجليه» قال شعبة : ولم يذكر مسح الرأس ، وهذا إسناد صحيح .

وروى ابن جرير من طريق شمر بن عطية عن شهر بن حوشب ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ «من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة ، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه» وروى مسلم في صحيحه من حديث يحيى بن أبي كثير ، عن زيد بن سلام ، عن جندس مطور ، عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال «الطهور شطر

الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم جنة ، والصبر ضياء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . وفي صحيح مسلم من رواية سماك بن حرب عن مصعب بن سعد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور » . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن قتادة ، سمعت أبي المليح الهذلي يحدث عن أبيه ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ في بيت فسمعت يقول « إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور ، ولا صدقة من غلول » وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة .

وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الِّدَى وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ لَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ءَانِسُوا إِلَىٰ إِلٰهِكُمْ ءَأَيْدِيهِمْ فَكَفَّ ءَأَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مذكرا عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ؛ وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مباحته على متابعتة ومناصرتة ومؤازرتة ، والقيام بدينه وإبلاغه عنه ، وقبوله منه ؛ فقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا : يايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ؛ وقال الله تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ . وقيل : هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق واليهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقيل : هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أليست برسبكم قالوا بلى شهدنا ﴾ قاله مجاهد ومقاتل بن حبان ، والقول الأول أظهر ، وهو المحكي عن ابن عباس والسدي ؛ واختاره ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر ، فقال ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة ، وكونوا ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أي بالعدل لا بالجور ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال : نحلني أبي نخلًا فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال « أكل ولدك ، نحلته مثله ؟ » قال : لا ، فقال « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » . وقال « إنني لا أشهد على جور » قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَن لَّا تَعْدِلُوا ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقًا كان أو عدوا ؛ ولهذا قال « اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه ، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه ، كما في نظائره من القرآن وغيره ، كما في قوله ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ .

وقوله : هو أقرب للتقوى من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء ، كما في قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ وكقول بعض الصحابييات لعمر : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ، ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ولهذا قال بعده ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجر عظيم ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده ، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل ، وإن كان

سبب وصول الرحمة إليهم أعمامهم ، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وشفوه ورضوانه فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة .

ثم قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهذا من عدله تعالى ، وحكمته وحكمه الذي لا يجوز فيه ، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير . وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسقطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾ . قال عبد الرزاق : اخبرنا معمر عن الزهري ، ذكره عن أبي سلمة ، عن جابر : أن النبي ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس في العشاء يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ ؛ فأخذه فسله ، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال : من يمنعك مني ؟ قال «الله عز وجل» . قال الأعرابي ، مرتين أو ثلاثاً : من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول «الله» . قال : فشام الأعرابي السيف ، فدعا النبي ﷺ أصحابه ، فأخبرهم خبر الأعرابي ، وهو جالس إلى جنبه ، ولم يعاقبه . وقال معمر ؛ كان قتادة يذكر نحو هذا ، ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكروا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي ، وتأول ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسقطوا إليكم أيديهم﴾ الآية ؛ وقصة هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسقطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾ وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوه ، فأوحى الله إليه بشأنهم ، فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فأتوه ، رواه ابن أبي حاتم . وقال أبو مالك : نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد وأصحابه في دار كعب بن الأشرف ؛ رواه ابن أبي حاتم . وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد ، أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي ، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك ، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحي من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالأوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يعني من توكل على الله ، كفاه الله ما أهمه ، وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم ، فحاصروهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بِعَدْوَالِكُمْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢٤﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَّلُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُو عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٦﴾

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق ، والشهادة بالعدل ، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيها هداهم له من الحق والهدى ، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع ، والعمل الصالح ؛ فقال تعالى : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ورسوله ولكتابه ؛ وقد ذكر ابن عباس عن ابن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبارة ، فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب ، قال محمد بن إسحاق : فكان من سبط روبيل

شامون بن ركون ، ومن سبط شمعون شافاط بن حري ، ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا ، ومن سبط آتين ميخائيل بن يوسف ، ومن سبط يوسف وهو سبط إفرايم يوشع بن نون ، ومن سبط بنيامين فلطم بن دفون ومن سبط زبولون جدي بن شوري ومن سبط منشا بن يوسف جدي بن موسى ومن سبط دان هملائيل بن حمل ومن سبط أشار ساطور بن ملكيل ، ومن سبط نفتالي بخر بن وقسي ، ومن سبط يساخر لاييل بن مكيد .

وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعدد النقباء على أسباط بني إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق ، والله أعلم ، قال فيها : فعل بني روبيل اليصور ابن سادون ، وعلى بني شمعون شموال بن صورشكي ، وعلى بني يهوذا الخشون بن عمياذاب ، وعلى بني يساخر شال بن صاعون ، وعلى بني زبولون الياب بن حالوب ، وعلى بني إفرايم منشا بن عمهور ، وعلى بني منشا هملائيل بن يرصون ، وعلى بني بنيامين أبيدن بن جدعون ، وعلى بني دان جعيذر بن عميشذي ، وعلى بني أشار نحائيل بن عجران ، وعلى بني كان السيف بن دعواييل ، وعلى بني نفتالي أجزع بن عمينان وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة ، كان فيهم اثنا عشر نقيباً : ثلاثة من الأوس : وهم أسيد بن الحضير ، وسعد بن خيشمة ، ورفاعة بن عبد المنذر ، ويقال بدله أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه ، وتسعة من الخزرج وهم : أبو امامة أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، والبراء بن معرور ، وعبادة بن الصامت ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، والمنذر بن عمر بن حنشل رضي الله عنهم ، وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له ، كما أورده ابن إسحاق رحمه الله ، والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك ، وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبي ، عن مسروق قال : كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، هل سألت رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله : ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ، ثم قال : نعم ، ولقد سألتنا رسول الله ﷺ فقال « اثنا عشر كعبه نقباء بني إسرائيل » هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة ، قال : سمعت النبي ﷺ يقول « لا يزال أمر الناس ما ضا ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي ، فسألت أي ما ذا قال النبي ﷺ ؟ قال « كلهم من قرش » وهذا لفظ مسلم . ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم ، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم ، بل وقد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، رضي الله عنهم ، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلاشك عند الأئمة وبعض بني العباس ، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة ؛ والظاهر أن منهم المهدي المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره ، فذكر أنه يواطئ اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه اسم أبيه ، فيملا الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً ، وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا ؛ فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية ، بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة ، وليس المراد هؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم . وفي التوراة البشارة بإسماعيل عليه السلام ، وإن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً ، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة ، وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهبهم أنهم الأئمة الاثنا عشر ، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً لقله علمهم وعلم من لقتهم ذلك بالنسب الثابتة عن النبي ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الله إنني معكم ﴾ أي بحفظي وكلائي ونصري ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي ﴾ أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ، ﴿ وعزرتهم ﴾ أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ، ﴿ لا تكفرون عنكم سيئاتكم ﴾ أي ذنوبكم أحوها وأسترها ولا أوأخذكم بها ، ﴿ ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود .

وقوله ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده وجحده ، وعامله معاملة من لا يعرفه ، فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال ، ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده ، فقال ﴿ فبئس نقضهم ميثاقهم لعناهم ﴾ أي فسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدهناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى ، ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ أي فلا يتعظون بوعظة لغظها وقساوتها ، ﴿ يجرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله ، وتأولوا كتابه

على غير ما أنزله ، وحمله على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل ، عياداً بالله من ذلك ، ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه . وقال الحسن : تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها ؛ وقال غيره : وتركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة ، فلا قلوب سليمة ، ولا فطر مستقيمة ، ولا أعمال قوية ، ﴿ولا تزال تطلع على خائفة منهم﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك . وقال مجاهد وغيره : يعني بذلك تملؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ وهذا هو عين النصر والظفر ؛ كما قال بعض السلف ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله أن يهديهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ يعني به الصفح عن أساء إليك . وقال قتادة : هذه الآية فاعف عنهم واصفح منسوخة بقوله ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾ أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح بن مريم عليه السلام وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ، ومناصرته ، وموازرته ، واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود ، خالفوا المواثيق ، ونقضوا العهود ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ونسوا حظاً مما ذكروا به فأغرنا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ أي فآلقنا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فرقة تحرم الأخرى ، ولا تدعها تلج معيها ، فالملكية تكفر اليعقوبية ، وكذلك الآخرون ، وكذلك النسطورية والآريوسية ، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهداء ، ثم قال تعالى : ﴿وسوف يبينهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ، من جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض : عربهم وعجمهم ، أمهم وكتابهم ، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل ، فقال تعالى : ﴿يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ أي يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه ، واقتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة في بيانه . وقد روى الحاكم في مستدرکه من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله ﴿يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب﴾ فكان الرجم مما أخفوه ؛ ثم قال : صحيح الاستناد ، ولم يخرجها . ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ، ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم آيين المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضلالة ، ويرشدهم إلى أقوم حالة .

لَسَدَ كَفَرِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ

أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ

فَلَمْ يَعِدْكُمْ بِدُونِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح بن مريم ، وهو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ أي لو أراد ذلك ، فمن ذا الذي كان يمنعه منه أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ؛ ثم قال ﴿والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء﴾ أي جميع الموجودات ملكه وخلقها ، وهو القادر على ما يشاء ، لا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

ثم قال تعالى رادا على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه ، وله بهم عناية ، وهو يحبنا ؛ ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبدته اسرائيل : أنت ابني بكري ، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه ، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام ؛ كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم ، يعني ربي وربكم ، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوا في عيسى عليه السلام وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده ، ولهذا قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، قال الله تعالى رادا عليهم ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه ، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم ؟

وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين نجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ، فلم يرد عليه ؛ فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ وهذا الذي قاله حسن ، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال : حدثنا ابن أبي عدي عن حميد ، عن أنس ، قال : مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه ، وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابني ابني ، وسعت فأخذته فقال القوم : يارسول الله ، ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار . قال : فحفظهم النبي ﷺ فقال ﴿لا والله ما يلقي حبيبه في النار﴾ فرد به أحمد ، ﴿بل أنتم بشر من خلق﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم ، وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يفغر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي هو فعال لما يريد ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، ﴿والله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ، ﴿والإله المصير﴾ أي المرجع والمآب إليه ، فيحكم في عبادته بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور .

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن أصا وبحر بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه ، وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله ، وحذرهم نقمته ، فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كقول النصارى ؛ فنزل الله فيهم ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ إلى آخر الآية ؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ؛ ورويا أيضاً من طريق أسباط عن السدي في قول الله ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أما قوهم : نحن أبناء الله ، فإنهم قالوا : إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكري من الولد ، فيدخلهم النار ، فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتآكل خطاياهم ، ثم ينادي مناد : أن أخرجوا كل منخون من ولد إسرائيل ، فأخرجوهم ، فذلك قولهم لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ

بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمد ﷺ خاتم النبيين ، الذي لا نبي بعده ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ؛ ولهذا قال : على فترة من الرسل ، أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى بن مريم ، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي ؟ فقال أبو عثمان النهدي وقتادة في رواية عنه : كانت ستمانة

سنة . ورواه البخاري عن سلمان الفارسي ، وعن قتادة : خمسمائة وستون سنة . وقال معمر ، عن بعض أصحابه : خمسمائة وأربعون سنة . وقال الضاحك : أربعمائة وبضع وثلاثون سنة . وذكر ابن عساکر في ترجمة عيسى عليه السلام عن الشعبي أنه قال : ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة ؛ والمشهور هو القول الأول ، وهو أنها ستمائة سنة . ومنهم من يقول : ستمائة وعشرون سنة ، ولا منافاة بينهما ، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية ، والآخر أراد قمرية ؛ وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين ؛ ولهذا قال تعالى في قصة أهل الكهف ﴿وَلْيُتَوَّأ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثُمِائَةَ سَنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب ، وكانت الفترة بين عيسى بن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق ؛ كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن أولى الناس بابن مريم لانا ليس بيني وبينه نبي» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي ، يقال له خالد بن سنان ، كما حكاه القاضي وغيره ، والمقصود أن الله بعث محمدا ﷺ على فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وتغير الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان والثران والصلبان ، فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة إليه أمر عم ، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أجداد اليهود وعباد النصرى والصابئين .

كما قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة عن مطرف ، عن عياض بن حماد المجاشعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبته «وإن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا ، كل مال نحلته عبادي حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإن الشياطين أتهمهم فأضلتمهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من بني إسرائيل ؛ وقال : إنما بعثتك لأتليك وأتبلي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرأه نائما ويقظانا ؛ ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت : يا رب إذن يثقلوا رأسي فيدعوه خيبة ، فقال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق عليهم فستنق عليك ، وابعث جيشاً نبعت خمساً أمثاله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موقف متصدق ، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم ، ورجل عفيف فقير ذو عيال متصدق ، وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا دين له ، والذين هم فيكم تبع أو تبعاً - شك يحيى - لا يتفنون أهلاً ولا مالاً ، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذكر البخيل أو الكذب ، والشظير الفاحش .

ثم رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي من غير وجه عن قتادة ، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير ؛ وفي رواية شعبة عن قتادة التصريح بسماع قتادة هذا الحديث من مطرف ، وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده أن قتادة لم يسمعه من مطرف وإنما سمعه من أربعة عنه ، ثم رواه هو عن روح ، عن عوف ، عن حكيم الأثرم ، عن الحسن قال : حدثني مطرف عن عياض بن حماد فذكره . ورواه النسائي من حديث غندر عن عوف الأعرابي به . والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم وعربهم وإلا بقايا من بني إسرائيل» وفي لفظ مسلم : من أهل الكتاب وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمدا ﷺ ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء والشرية الغراء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا يأياها الذين بدلوا دينهم وغيره ماجاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ، فقد جاءكم بشير ونذير يعني محمدا ﷺ ، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ قال ابن جرير : معناه إني قادر على عقاب من عصاني ، وثواب من أطاعني .

وَأَذَقْنَا لِكُلِّ مِجْسَدٍ مَوْتًا وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَنُفِثْنَا مِنْ حَتَمِ بَيْتِ الْكُفْرَانِ ۚ ﴿١٠٠﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٢﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٣﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٤﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٦﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٧﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٨﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٠٩﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٠﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١١﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٢﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٣﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٤﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٦﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٧﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٨﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١١٩﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٠﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢١﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٢﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٣﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٤﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٧﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٨﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٩﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣١﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٢﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٣﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٤﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٦﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٧﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٨﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٣٩﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٠﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤١﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٢﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٣﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٤﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٥﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٦﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٧﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٨﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٤٩﴾
 وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلْتُمْ بِظُلْمٍ أَرْضًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۗ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥٠﴾

فَاتَّكُمُ عَلَيْوْنَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
 أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافِرْقُبَيْنَا وَبَيْتَ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه
 لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة : لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة ؛ فقال تعالى : ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم
 اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده ،
 وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويعذرون نقمته حتى ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام ، ثم أوحى الله
 إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وهو أشرف من
 كل من تقدمه منهم ﷺ .

وقوله ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ قال عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن منصور ، عن الحكم أو غيره ، عن ابن عباس في
 قوله : وجعلكم ملوكاً ، قال : الخادم والمرأة والبيت . وروى الحاكم في مستدركه من حديث الثوري أيضاً عن
 الأعمش ، عن مجاهد عن ابن عباس قال : المرأة والخادم ﴿وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ قال : الذين هم بين
 ظهرايهم يومئذ . ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس
 قال : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار ، سمي ملكاً . وقال ابن جرير : حدثنا يونس بن
 عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أنبأنا أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول : سمعت عبد الله بن عمرو بن
 العاص ، وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال عبد الله : ألك امرأة تأتي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك
 مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . فقال : إن لي خادماً . قال : فأنت من الملوك . وقال الحسن
 البصري : هل الملك إلا مركب وخادم ودار ، رواه ابن جرير ؛ ثم روى عن الحكم ومجاهد ومنصور وسفيان الثوري نحوه
 من هذا . وحكاه ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران . وقال ابن شوذب : كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل
 وخادم واستؤذن عليه ، فهو ملك وقال قتادة : كانوا أول من اتخذ الخدم .

وقال السدي في قوله ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ قال : يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله ، رواه ابن أبي حاتم . وقال
 ابن أبي حاتم : ذكر عن ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : كان
 بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم وداية وامرأة ، كتب ملكاً ؛ وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وقال ابن جرير :
 حدثنا الزبير بن بكار ، حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض ، سمعت زيد بن أسلم يقول : وجعلكم ملوكاً فلا أعلم إلا أنه
 قال : قال رسول الله ﷺ من كان له بيت وخادم فهو ملك ؛ وهذا مرسل غريب . وقال مالك : بيت وخادم وزوجة . وقد
 ورد في الحديث «من أصبح منكم معافى في جسده ، أمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا
 بحذاقيرها» .

وقوله ﴿وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان
 والقبظ وسائر أصناف بني آدم ، كما قال ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات
 وفضلناهم على العالمين﴾ وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء
 متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبيغيبكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾ والمقصود أنهم كانوا أفضل
 زمانهم ، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم ، وأفضل عند الله ، وأكمل شريعة ، وأقوم منهاجاً ، وأكرم نبياً ، وأعظم ملكاً ،
 وأغزر أرزاقاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وأوسع مملكة ، وأدوم عزاً . قال الله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا
 شهداء على الناس﴾ ، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله تعالى : ﴿كنتم
 خير أمة أخرجت للناس﴾ من سورة آل عمران .

وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبي مالك وسعيد بن جبير أنهم قالوا في قوله ﴿وأتاكم ما لم يؤت أحداً من
 العالمين﴾ يعني أمة محمد ﷺ ، فكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب في قوله ﴿وأتاكم ما لم يؤت أحداً﴾ مع هذه الأمة ،
 والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه ، وهو محمول على عالمي زمانهم كما قدمنا ، وقيل : المراد وأتاكم ما لم يؤت أحداً

من العالمين : يعني بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى ، ويظللهم به من الغمام وغير ذلك مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات ، فإله أعلم .

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالة الجبارين قد استحذوا عليها وتملكوها ، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم ، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتادي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد ، مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفریطهم في أمر الله تعالى . فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال : يا قومي ادخلوا الأرض المقدسة أي المطهرة . وقال سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس في قوله : ادخلوا الأرض المقدسة ، قال : هي الطور وما حوله ؛ وكذا قال مجاهد وغير واحد . وروى سفيان الثوري عن أبي سعيد البقال ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : هي أريحاء ؛ وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين ، وفي هذا نظر ، لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح ، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس ، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون ، إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس ؛ كما قاله السدي فيها رواه ابن جرير عنه ، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس .

وقوله تعالى : ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم ، ﴿ولا تردوا على أدياركم﴾ أي ولا تنكثوا عن الجهاد ﴿فتقبلوا خاسرين﴾ قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنما لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون﴾ أي اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوماً جبارين ذوي خلق هائلة وقوى شديدة ، وإنما لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ، ولا يمكننا الدخول إليها ماداموا فيها ، فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا طاقة لنا بهم . وقد قال ابن جرير : حدثني عبد الكريم بن الميثم ، حدثنا إبراهيم بن بشار ، حدثنا سفيان قال : قال أبو سعيد : قال عكرمة ، عن ابن عباس قال : أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين ، قال : فسار موسى بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة ، وهي أريحاء ، فبعث إليهم اثني عشر عيناً من كل سبط منهم عين ، ليأتوه بخير القوم ، قال : فدخلوا المدينة فأروا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم ، فدخلوا حائطاً لبعضهم ، فجاء صاحب الحائط ليحتج الثمار من حائطه ، فجعل يحتج الثمار وينظر إلى آثارهم ، فتبعهم فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة ، حتى التقط الاثني عشر كلهم ، فجعلهم في كفه مع الفاكهة ، وذهب بهم إلى ملكهم فشرهم بين يديه ؛ فقال لهم الملك : قد رأيتم شأننا وأمرنا ، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم ، قال : فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم ؛ وفي هذا الإسناد نظر وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس لما نزل موسى وقومه ، بعث منهم اثني عشر رجلاً ، وهم النقباء الذين ذكروهم الله ، فبعثهم ليأتوه بخبرهم ، فساروا فلقيهم رجل من الجبارين ، فجعلهم في كسائه ، فحملهم حتى أتى بهم المدينة ، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه ، فقالوا من أنتم ؟ قالوا : نحن قوم موسى ، بعثنا تأتيه بخبركم ، فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل ، فقالوا لهم اذهبوا إلى موسى وقومه ، فقولوا لهم هذا قدر فاكهتهم ، فرجعوا إلى موسى فأخبروه ، بما رأوا ، فلما أمرهم موسى عليه السلام ، بالدخول عليهم وقتالهم ، قالوا : ياموسى اذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون ، رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا يحيى بن أيوب ، عن يزيد بن الهادي ، حدثني يحيى بن عبد الرحمن ، قال : رأيت أنس بن مالك ، أخذ عصاه فذرع فيها بشيء لا أدري كم ذرع ، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمساً وخمسين ، ثم قال : هكذا طول العماليق . وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين ، وأن منهم عوج بن عنق ، ابن بنت آدم عليه السلام ، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع ، تحمير الحساب ، وهذا شيء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين ، أن رسول الله ﷺ قال ﴿إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً ، وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته ؛ وهذا كذب واقتراف ، فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين ، فقال ﴿رب لا تدر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ وقال تعالى : ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾ ثم أغرقنا بعد الباقين﴾ وقال تعالى : ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ وإذا كان ابن نوح الكافر ، غرق فكيف يبقى عوج بن عنق ، وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع . ثم في وجود

رجل يقال له عوج بن عتق نظر ، والله أعلم .
وقوله تعالى : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ ، حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة ، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم ﴿ قال رجلان من الذين يخافون ﴾ أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس ، ويقال إنها يوشع بن نون وكالب بن يوقنا . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وعطية والسدي ، والربيع بن أنس ، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالوا ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴿ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ، ووافقتم رسوله ، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ، ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم ، فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً ﴾ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴿ وهذا نكول منهم عن الجهاد ، ومخالفة لرسولهم ؛ ومخالفة الأعداء . ويقال : إنهم لما نكلوا عن الجهاد ، وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر ، سجد موسى وهارون وعليهما السلام ، قدام ملا من بني إسرائيل ، إعظاماً لما هموا به ، وشتق يوشع بن نون وكالب بن يوقنا ، ثيابها ، ولأما قومها على ذلك ، فيقال إنهم رجموها ، وجرى أمر عظيم ، وخطر جليل ، وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النضير ، الذين جاءوا لمنع العبر ، الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العبر ، واقترب منهم النضير ، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة ، والبيض واليلب ، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول الله ﷺ يقول ﴿ أشيروا علي أيها المسلمون ﴾ وما يقول ذلك ، إلا ليستعلم ما عند الأنصار ، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ ، فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر ، فضضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره ان تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك .
وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو حاتم الرازي ، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري ، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين ، فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار : يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغراد لاتبعنك ، ورواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد ، عن حميد الطويل ، عن أنس به . ورواه النسائي عن محمد بن المنثري ، عن خالد بن الحارث ، عن حميد به ، ورواه ابن حبان عن أبي يعلى عن عبد الأعلى بن حماد ، عن معمر بن سليمان ، عن حميد به .
وقال ابن مردويه : أخبرنا عبد الله بن جعفر ، أنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن شعيب عن الحكم بن أيوب ، عن عبد الله بن ناسخ ، عن عتبة بن عبيد السلمي ، قال : قال النبي ﷺ لأصحابه ﴿ ألا تقاتلون ؟ ﴾ قالوا نعم ، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندي رضي الله عنه ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثني سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحسي ، عن طارق هو ابن شهاب ، أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله ، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ، هكذا رواه أحمد من هذا الوجه ، وقد رواه من طريق أخرى فقال : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن مخارق ، عن طارق بن شهاب ، قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين ، فقال : والله يارسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسره ذلك . وهكذا رواه البخاري في المغازي وفي التفسير من طرق عن مخارق به ، ولفظه في كتاب التفسير عن عبد الله ، قال : قال المقداد يوم بدر : يارسول الله ، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ولكن امض ونحن معك . فكانه سري عن رسول الله ﷺ ثم قال البخاري : رواه وكيع عن سفيان ، عن مخارق ، عن طارق ، أن المقداد قال للنبي ﷺ وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد المشركون الهدي ، وحيل بينهم وبين مناسكهم ﴿ إني ذاهب بالهدي فنحره عند البيت ﴾ فقال له المقداد بن الاسود : أما والله لا نكون كالملا من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيهم ﴿ اذهب

أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴿ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تتابعوا على ذلك . وهذا إن كان محفوظاً يوم الحديبية فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر .
وقوله : ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام . وقال داعياً عليهم ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ أي ليس أحد يطعني منهم فيمثل أمر الله ويوجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : يعني أقض بيني وبينهم . وكذا قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، وكذا قال الضحاك : أقض بيننا وبينهم ، وافتح بيننا وبينهم ، وقال غيره : افرق أفضل بيننا وبينهم ، كما قال الشاعر :

يارب فافرق بينه وبينني أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله تعالى : ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ الآية ؛ لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يبتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمم وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ويقال لها قبة الزمان . قال يزيد بن هارون عن أصيب بن زيد ، عن القاسم بن أبي أيوب ، عن سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ الآية قال : فتأهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وهذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام ، نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله ﴿ قال فإنها محرمة عليهم ﴾ هذا وقف تام .
وقوله ﴿ أربعين سنة ﴾ منصوب بقوله ﴿ يتيهون في الأرض ﴾ فلما انقضت المدة ، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام ، أو بمن بقي منهم ، وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني ، فقصدهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيقت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم ، قال : إنك مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهم احبسها علي . فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله يوشع بن نون ، أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس ، أن يدخلوا بابها سجداً ، وهم يقولون : حطة أي حظ عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أمروا به ، ودخلوا يرحفون على أستاذهم وهم يقولون : حبة في شعرة ، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن أبي عمر العبدي ، حدثنا سفيان عن أبي سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما قوله ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ﴾ قال : فتأهوا أربعين سنة ، قال : فهلك موسى وهارون في التيه ، وكل من جاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ، ناهضهم يوشع بن نون ، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى ، وهو الذي افتتحها ، وهو الذي قيل له ؛ اليوم يوم الجمعة ، فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب ، فخشي إن دخلت ليلة السبت أن يبتوا ، فنادى الشمس : إني مأمور ، وإنك مأمورة ، فوقفتم حتى افتتحها ، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط ، فقربوه إلى النار فلم تأته ، فقال فيكم الغلول ، فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم والتصفت يد رجل منهم بيده فقال : الغلول عندك فأخرجه ، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان ، فأنت النار فأكلته ؛ وهذا السياق له شاهد في الصحيح .

وقد اختار ابن جرير أن قوله : ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ هو العامل في أربعين سنة وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة ، وهم تائهون في البرية لا يبتدون لمقصد ، قال : ثم خرجوا مع موسى عليه السلام ، ففتح بهم بيت المقدس ، ثم احتج على ذلك من قال بإجماع علماء أخبار الأولين ، أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام ، قال : فلو كان قتله إياه قبل التيه ، لما رهبت بنو إسرائيل من العماليق فدل على أنه كان بعد التيه ، قال : وأجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى ، قال : وماذاك إلا بعد التيه ، لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه ، هذا استدلاله ، ثم قال : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن عطية ، حدثنا قيس عن ابن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : كانت عصا موسى عشرة أذرع ، ووثبه عشرة أذرع ، وطوله عشرة أذرع ، فوثب فأصاب كعب عوج

فقتله ، فكان جسراً لأهل النيل ستة ، وروي أيضاً عن محمد بن بشر : حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق ، عن نوف هو البكالي قال : كان سرير عوج ثمانمائة ذراع ، وكان طول موسى عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، ووثب في السماء عشرة أذرع ، فضرب عوجاً فأصاب كعبه فسقط ميتاً وكان جسراً للناس يمرون عليه .
وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَأْسُ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلياً لموسى عليه السلام عنهم ، أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به ، فإنهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود ، وبيان فضائحتهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتها فيما أمراهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان ، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم ، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون لتقريبه أعينهم ، وما بالعهد من قدم ، ثم يتكلمون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذليل ، هذا وهم في جهلهم وعمهون وفي غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعدائه ، ويقولون مع ذلك : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقردة والزهم لعتة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضي لهم فيها بتأييد الخلود ، وقد فعل وله الحمد في جميع الوجود .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا اتَّخَفْتُمُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَنْ أَبْسُطَ إِلَيْكَ يَدِي لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوَ آبَاءِنِي وَإِنَّكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ
لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَثُ
سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلُنِي أَعْجَزْتَ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَثِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم ، لصلبه في قول الجمهور ، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله ، بغيا عليه وحسداً له ، فيها وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الأثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين ، فقال تعالى : ﴿وَأْتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ ، أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم ، وهما هابيل وقابيل ، فيها ذكره غير واحد من السلف والخلف .
وقوله ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ؛ كقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقِصَصُ الْحَقُّ﴾ . وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ وقال ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ ، وكان من خبرهما فيها ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى شرع لأدم عليه السلام ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له في كل بطن ذكر وأنتى ؛ فكان يزوج أنتى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك ، إلا أن يقربا قرباناً ، فمن تقبل منه فهي له ، فتقبل ، من هابيل ولم يتقبل من قابيل ؛ فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه .

ذكر أقوال المفسرين ههنا

قال السدي ، فيها ذكر عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : أنه كان لا يولد لأدم مولود إلا ولد معه جارية ، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر . ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : هابيل وقابيل وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن يتكح أخت قابيل ، فأبى عليه ، وقال : هي أختي ولدت معي ، وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها ؛ فأمره أبوه أن يزوجه هابيل فأبى ، وأنها قربا قرباناً إلى الله عز وجل أيها أحق بالجارية ، وكان آدم عليه السلام قد غاب عنها ،

أتى مكة ينظر إليها . قال الله عز وجل : هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض ؟ قال : اللهم لا . قال : إن لي بيتاً في مكة ، فإنه ، فقال آدم للسواء : احفظي ولدي بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل ، فقال : نعم ، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك . فلما انطلق آدم قرباً قرباناً ، وكان قابيل يفتخر عليه ، فقال : أنا أحق بها منك هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصي والدي ؛ فلما قربا قرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبله عظيمة ، ففركها وأكلها : فنزلت النار ، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختي ، فقال هابيل : إنما يتقبل الله من المتقين ، رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن خثيم قال : أقبلت مع سعيد بن جبير ، فحدثني عن ابن عباس ، قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ؛ فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضئته وولد له أخرى قبيلة دميمية ، فقال أخو الدميمية : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال : لا ، أنا أحق بأختي ، فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكباش ولم يتقبل من صاحب الزرع ، فقتله . إسناد جيد ؛ وحدثنا أبي ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس وقوله ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ فقربا قربانها ، فجاء صاحب الغنم بكباش أعين أقرن أبيض ، وصاحب الحرث بصرة من طعامه ، فقبل الله الكباش فخرته في الجنة أربعين خريفاً ، وهو الكباش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام ، إسناد جيد .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا عوف عن أبي المغيرة عن عبد الله بن عمرو ، قال : إن ابني آدم اللذين قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم ، وإنما أمر أن يقربا قرباناً ، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه ، وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه الكودن والزوان غير طيبة بها نفسه ، وإن الله عز وجل تقبل قربان صاحب الغنم ، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث ، وكان من قصتها ما قص الله في كتابه ، قال : وإيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يسطر يده إلى أخيه ، وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص : بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان ، كان أحدهما صاحب غنم وكان أنتج له حمل في غنمه ، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل ، وكان يحمل على ظهره من حبه ، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه ، فلما أمر بالقربان قربه الله عز وجل فقبله الله منه ، فما زال يرتع في الجنة حتى فدي به ابن إبراهيم عليه السلام ، رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الأنصاري ، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن ، حدثنا محمد بن علي بن الحسين ، قال : قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل : إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان ، فقربا قرباناً حتى تقر عيني ، إذا تقبل قربانكما فقربا وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكلة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع ، فقرب مشاققة من زرع ، فانطلق آدم معها ، ومعها قربانها ، فصعدا الجبل ، فوضعا قربانها ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان ، فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عتق ، فاحتمل قربان هابيل ، وترك قربان قابيل ، فانصرفوا ، وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه ، فقال : ويلك يا قابيل رد عليك قربانك ؛ فقال قابيل احببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ورد علي قرباني ، فقال قابيل لهابيل لأقتلنك وأستريح منك ، دعا لك أبوك فصل على قربانك فتقبل منك ، وكان يتوعده بالقتل إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه ، فقال آدم : يا قابيل ، أين أخوك ؟ قال : وبعثني له راعياً لا أدري ، فقال آدم : ويلك يا قابيل ، انطلق فاطلب أخاك ، فقال قابيل في نفسه : الليلة أقتله ، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب ، فقال : يا هابيل تقبل قربانك ورد علي قرباني لأقتلنك ، فقال هابيل : قربت أطيب مالي ، وقربت أنت أحبث مالك وإن الله لا يقبل إلا الطيب إنما يتقبل الله من المتقين ، فلما قالها غضب قابيل ، فرفع الحديدة وضربه بها ، فقال : ويلك يا قابيل ، أين أنت من الله كيف يجزيك بعملك ؟ فقتله ، فطرحه في حوبة من الأرض ، وحشى عليه شيئاً من التراب .

وروي محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : أن آدم أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توامة هابيل ، وأمر هابيل أن ينكح أخته توامة قابيل ، فسلم لذلك هابيل ورضي ، وأبى ذلك قابيل وكره تكراً عن أخت هابيل ، ورغب بأخته عن هابيل وقال : نحن من ولادة الجنة ، وهما من ولادة الأرض ، وأنا أحق بأختي ، ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول : كانت أخت قابيل من أحسن الناس ، فضن بها على أخيه وأرادها لنفسه والله أعلم أي ذلك كان فقال له أبوه : يابني انها لا تحمل لك فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه . قال له أبوه : يابني قرب قرباناً ويقرب أخوك هابيل

قرباناً ، فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها . وكان قابيل على بذر الأرض ، وكان هابيل على رعاية الماشية ، فقرب قابيل قمحاً وقرب هابيل أبقاراً من أبقار غنمه ، وبعضهم يقول : قرب بقرة ، فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله ؛ رواه ابن جرير .

وروى العوفي عن ابن عباس قال : من شأنها أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه وإنما كان القربان يقربه الرجل فينا ابناً آدم قاعدان ، إذ قالوا : لو قربنا قرباناً ؛ وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قرباناً ، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمها ، وقرب الآخر بعض زرع ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورد علي ؛ فلا والله لا ينظر الناس إليّ وأنت خير مني فقال : لأقتلنك ، فقال له أخوه : ما ذنبي ؟ إنما يتقبل الله من المتقين ؛ رواه ابن جرير فهذا الأثر يقتضي أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارؤ في امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن ﴿إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه . ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل وأن الذي قرب الطعام هو قابيل وأنه تقبل من هابيل شاته ، حتى قال ابن عباس وغيره أنها الكباش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب ، والله أعلم ، ولم يتقبل من قابيل . كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضاً ، ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال الذي قرب الزرع قابيل وهو المتقبل منه ، وهذا خلاف المشهور ولعله لم يحفظ عنه جيداً ، والله أعلم .

ومعنى قوله ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ أي ممن اتقى الله في فعله ذلك . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زيد ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثني صفوان بن عمرو عن نعيم يعني ابن مالك المقرئ ، قال : سمعت أبا الدرداء يقول : لأن استيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها إن الله يقول ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ . وحدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن عمران حدثنا إسحاق بن سليمان يعني الرازي عن المغيرة بن مسلم ، عن ميمون بن أبي حمزة ، قال : كنت جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى سمعته يقول : يحبس الناس في بقيع واحد فينادي مناد : أين المتقون ؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يجتنب الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرون إلى الجنة .

وقوله ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ إنني أخاف الله رب العالمين ﴿يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه ، حين توعدته أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه﴾ ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿إنني أخاف الله رب العالمين﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب . قال عبد الله بن عمرو : وإيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج يعني الورع ، ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال ﴿إذا تواجّه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار﴾ قالوا : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال ﴿إنه كان حريصاً على قتل صاحبه﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث بن سعد عن عياش بن عباس ، عن بكير بن عبد الله ، عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال ﴿إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي﴾ قال : أفرايت أن دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقبطني فقال ﴿كن كإبن آدم﴾ ، وكذا رواه الترمذي عن قتيبة بن سعيد وقال : هذا حديث حسن . وفي الباب عن أبي هريرة وخباب بن الارت وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد وأبي موسى وخرشة ورواه بعضهم عن الليث بن سعد وزاد في الإسناد رجلاً ؛ قال الحافظ بن عساكر : الرجل هو حسين الأشجعي . قلت : وقد رواه أبو داود من طريقه فقال : حدثنا يزيد بن خالد الرملي ، حدثنا الفضل عن عياش بن عباس ، عن بكير عن بشر بن سعيد ، عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذا الحديث ، قال : فقلت : يارسول الله أرأيت إن دخل بيتي وبسط يده ليقبطني ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ ﴿كن كإبن آدم﴾ وتلا ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ إنني أخاف الله رب العالمين .

قال أيوب السخيتاني : إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة ﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي

إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، رواه ابن أبي حاتم . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن حزم ، حدثني أبو عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر ، قال : ركب النبي ﷺ حماراً أردفني خلفه وقال «يا أبا ذر أرايت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع ؟» قال : قال الله ورسوله أعلم ، قال «تعفف» قال «يا أبا ذر أرايت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبء يعني القبر كيف تصنع ؟» قلت : الله ورسوله أعلم ، قال «اصبر» قال «يا أبا ذر أرايت إن قتل الناس بعضهم بعضاً ، يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع ؟» قال : الله ورسوله أعلم ؛ قال «اقعد في بيتك واغلق عليك بابك» قال : فإن لم أنزل ، قال «فأت من أنت منهم فكن منهم» قال : فأخذ سلاحي ، قال «فإذا تشاركهم فيما هم فيه ولكن إذا خشيت أن يردعك شعاع السيف فأتك طرف رداك على وجهك كي يوءم بإثمك» ؛ ورواه مسلم وأهل السنن سوى النسائي من طرق عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت به . ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق حماد بن زيد عن أبي عمران ، عن المشعث بن طريف ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر بنحوه ؛ قال أبو داود : ولم يذكر المشعث في هذا الحديث غير حماد بن زيد . وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن دحيم ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان عن منصور ، عن ربيعي ، قال : كنا في جنازة حذيفة فسمعت رجلاً يقول : سمعت هذا يقول في ناس ، مما سمعت من رسول الله ﷺ «لئن اقتلتكم لأظنن إلى أقصى بيت في داري فلا أجنه فلئن دخل علي فلان لأقولن هابؤ بإثمك وإثمك فأكون كخير ابني آدم» .

وقوله «إني أريد أن تبوء بإثمك وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين» قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقادة والسدي في قوله «إني أريد أن تبوء بإثمك وإثمك» أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك ، قال ابن جرير . وقال آخرون : يعني بذلك إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي ، وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشي أن يكون غلطاً لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه ، يعني ما رواه سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد «إني أريد أن تبوء بإثمك» قال : بقتلك إياي «وإثمك» قال : بما كان منك قبل ذلك ، وكذا رواه عيسى بن أبي نجيع ، عن مجاهد مثله ، وروى شبيل عن ابن أبي نجيع عن مجاهد «إني أريد أن تبوء بإثمك وإثمك» يقول إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بها جميعاً .

(قلت) وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول ، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» وقد روى الحافظ أبو بكر البرار حديثاً يشبه هذا ولكن ليس به ، فقال : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني ، حدثنا يعقوب بن عبد الله ، حدثنا عتبة بن سعيد عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : قال رسول الله ﷺ «قتل الصبر لا يمر بذنب إلا معاه» وهذا بهذا لا يصح ، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بآلم القتل ذنوبه ، فأما أن تحمل على القاتل فلا ، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب ، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات ، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفذت ولم يستوف حقه ، أخذ من سيئات المقتول ، فطرح على القاتل ، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل ، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها ، والقتل من أعظمها وأشدّها ، والله أعلم .

وأما ابن جرير فقال والصواب من القول في ذلك أن يقال إن تأويله إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله «إني أريد أن تبوء بإثمك وإثمك» وأما معنى «وإثمك» فهو إثمه يعني قتله وذلك معصية الله عز وجل في أعماله سواه وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبتها بنفسه دون ما ركبته قتيله ، هذا لفظه ، ثم أورد على هذا سؤالاً حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرم ، وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله ، بل يكف عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه . قلت : وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ ، وجزراً له لو انزجر ، ولهذا قال «إني أريد أن تبوء بإثمك وإثمك» أي تتحمل إثمك وإثمك «فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين» وقال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر .

وقوله تعالى : «فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين» أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعت على قتل أخيه فقتله ، أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر ، وقد تقدم في الرواية عن أبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين أنه قتله بحديدة في يده . وقال السدي ، عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة بن عبد

الله ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فطلبه ليقتله ، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال ، فاتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات ، فتركه بالعماء ؛ رواه ابن جرير . وعن بعض أهل الكتاب أنه قتله خنقاً وعضاً كما تقتل السباع . وقال ابن جرير : لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه ، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها ، وابن آدم ينظر ، ففعل بأخيه مثل ذلك ؛ رواه ابن أبي حاتم . وقال عبد الله بن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، قال : أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له وجعل يعمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله ، فجاءه إبليس فقال : أتريد أن تقتله ؟ قال : نعم . قال : فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه . قال : فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه ، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً فقال : يا حواء إن قابيل قتل هابيل ؛ فقالت له : ويحك وأي شيء يكون القتل ؟ قال : لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك . قالت : ذلك الموت . قال : فهو الموت ، فجعلت تصيح حتى دخل عليه آدم وهي تصيح ، فقال مالك ؟ فلم تكلمه ، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه ؛ فقال : عليك الصيحة وعلى بناتك ، وأنا وبني منها براء ؛ رواه ابن أبي حاتم .

وقوله ﴿فأصبح من الخاسرين﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه ؟ وقد قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ووكيع قالوا : حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل» وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود من طرق عن الأعمش به . وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج قال : قال ابن جريج : قال مجاهد : علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ ووجهه في الشمس حيث دارت دار ، عليه في الصيف حظيرة من نار ، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج . قال : وقال عبد الله بن عمرو : إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحاق ، عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه قال يقول : إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذي قتل أخاه ، ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر ، وذلك أنه أول من سن القتل . وقال إبراهيم النخعي : ما من مقتول يقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه ؛ رواه ابن جرير أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه فأصبح من النادمين﴾ قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضي الله عنهم : لما مات الغلام تركه بالعماء ، ولا يعلم كيف يدفن ؛ فبعث الله غرابين أخوين فانتلوا ؛ فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له ثم حتى عليه ، فلما رآه قال ﴿ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه﴾ وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قال : جاء غراب إلى غراب ميت ، فبحث عليه من التراب حتى واره ؛ فقال الذي قتل أخاه ﴿ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه﴾ . وقال الضحاك ، عن ابن عباس : مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين ، فرأهما يبحثان ، فقال ﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ فدفن أخاه . وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد : كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً لا يدري ما يصنع به ، يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب ، فقال ﴿ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه فأصبح من النادمين﴾ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وقال عطية العوفي : لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح ، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله ؛ رواه ابن جرير .

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول : لما قتله سقط في يده ، أي ولم يدر كيف يواريه ، وذلك أنه كان فيما يزعمون أول قتيل في بني آدم ، وأول ميت ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال ياويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخيه فأصبح من النادمين﴾ . قال : وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل ، قال له الله عز وجل : يا قابيل أين أخوك هابيل ؟ قال : ما أدري ما كنت عليه رقيقاً ؛ فقال الله : إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن ، أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها فتلقت دم أخيك من يدك ، فإن أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعاً تائهاً في الأرض .

وقوله ﴿فأصبح من النادمين﴾ قال الحسن البصري : علاه الله بندامة بعد خسران ؛ فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة ، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه ، كما هو ظاهر القرآن ، وكما نطق به الحديث في قوله «الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» وهذا ظاهر جلي ، ولكن قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا

سهل بن يوسف عن عمرو ، عن الحسن هو البصري ، قال : كان الرجلان اللذان في القرآن اللذان قال الله : ﴿واتل عليهم نبأً ابني آدم بالحق﴾ من بني إسرائيل ، ولم يكونا ابني آدم لصلبه ، وإنما كانا القربان من بني إسرائيل ، وكان آدم أول من مات ؛ وهذا غريب جداً ، وفي استناده نظر . وقد قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن ، قال : قال رسول الله ﷺ «إن ابني آدم عليه السلام ضرباً هذه الأمة مثلاً ، فخذوا بالخير منها» ورواه ابن المبارك ، عن عاصم الأحول ، عن الحسن ، قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً ، فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم» ؛ وكذا أرسل هذا الحديث بكير بن عبد الله المزني ، روى ذلك كله ابن جرير . وقال سالم بن أبي الجعد : لما قتل ابن آدم أخاه مكث آدم مائة سنة حزناً لا يضحك ، ثم أتى فقيل له : حياك الله وبياك ، أي أضحكك ؛ رواه ابن جرير ، ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا سلمة عن غياث بن إبراهيم ، عن أبي إسحاق الهمداني قال : قال علي بن أبي طالب ، لما قتل ابن آدم أخاه بكاه آدم ، فقال :

تغيرت البلاد ومن عليها
تغير كل ذي لون وطعم
فأجيب آدم عليه الصلاة والسلام :
أبسا هابيل قد قتل جميعاً
وجاء بشره قد كان منه

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة ، كما ذكره مجاهد وابن جبير أنه علفت ساقه بفخذه إلى يوم القيامة ، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به ؛ وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعه الرحم» وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا ، فإنما لله وإننا إليه راجعون .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ نُرًا كَثِيرًا
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ
أَن لَّهِ عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها ، أي حرم قتلها واعتقد ذلك ، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ؛ ولهذا قال ﴿فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ وقال الأعمش وغيره ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : دخلت على عثمان يوم الدار فقلت : جئت لأنصرك ، وقد طاب الضرب بإمير المؤمنين ، فقال : يا أبا هريرة ، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم ؟ قلت : لا . قال : فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً ، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور ، قال : فانصرفت ولم أقاتل ؛ وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو كما قال الله تعالى : ﴿من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرماً الله ، فذلك الذي أحيا الناس جميعاً يعني أنه من حرم قتلها إلا بحق حيي الناس منه ؛ وهكذا قال مجاهد : ومن أحياها ، أي كف عن قتلها . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : فكأنما قتل الناس جميعاً ، يقول : من قتل نفساً واحدة حرماً الله ، فهو مثل من قتل الناس جميعاً . وقال سعيد بن جبير : من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً ؛ هذا قول وهو الأظهر . وقال عكرمة والعوفي عن ابن عباس : من قتل نبياً أو إمام عدل ،

فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ ومن شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيأ الناس جميعاً ، رواه ابن جرير . وقال مجاهد في رواية أخرى عنه : من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ، وذلك لأن من قتل النفس فله النار ؛ فهو كما لو قتل الناس كلهم . قال ابن جرير ، عن الأعرج ، عن مجاهد في قوله : فكأنما قتل الناس جميعاً من قتل النفس المؤمنة متعمداً ، جعل الله جزاءه جهنم ، وغضب عليه ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً ، يقول : لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب . قال ابن جرير : قال مجاهد : ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً ، قال : من لم يقتل أحداً فقد حيا الناس منه .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : من قتل نفساً فكأنما قتل الناس ، يعني فقد وجب عليه القصاص ، فلا فرق بين الواحد والجماعة ؛ ومن أحيأها أي عفا عن قاتل ووليه فكأنما أحيأ الناس جميعاً ، وحكى ذلك عن أبيه ، رواه ابن جرير . وقال مجاهد في رواية : ومن أحيأها ، أي أنجأها من غرق أو حرق أو هلكة . وقال الحسن وقتادة في قوله : أنه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ، هذا تعظيم لتعاطي القتل . قال قتادة : عظيم والله وزرها ، وعظيم والله أجراها ؛ وقال ابن المبارك ، عن سلام بن مسكين ، عن سليمان بن علي الربيعي ، قال : قلت للحسن هذه الآية لنا بأبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل ، فقال : أي والذي لا إله غيره ، كما كانت لبني إسرائيل وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماننا . وقال الحسن البصري : فكأنما قتل الناس جميعاً ، قال : وزراً ؛ ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعاً ، قال : أجراً . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن هبيرة ، حدثنا حبي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحلي ، عن عبد الله بن عمرو قال : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، اجعلني على شيء أعيش به ؛ فقال رسول الله ﷺ «يا حمزة نفس تحبها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال : بل نفس أحبها . قال «عليك بنفسك» .

قوله تعالى : ﴿ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ، ﴿ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ وهذا تفرغ لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها ، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بني قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج ، إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها ، فدوا من أسروه وودوا من قتلوه ، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾ .

قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ الآية ، المحاربة هي المضادة والمخالفة ، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف ، منهم سعيد بن المسيب : إن قبض الدرهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ ، ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين ؛ كما قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا الحسين بن واقد عن يزيد ، عن عكرمة والحسن البصري ، قالوا ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - إلى - إن الله غفور رحيم﴾ نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه ، لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل ، أو أفسد في الأرض ، أو حارب الله ورسوله ، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب . ورواه أبو داود والنسائي من طريق عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، نزلت في المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه ، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً﴾ الآية ، قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق ، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، رواه ابن جرير .

وروى شعبة عن منصور عن هلال بن يساف ، عن مصعب بن سعد ، عن أبيه قال : نزلت في الحرورية ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً﴾ رواه ابن مردويه ؛ والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات ؛ كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة واسمه عبد الله بن زيد

الجرمي البصري ، عن أنس بن مالك أن نقرأ من عكل ، ثمانية ، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام ، فاستوخوا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال «الا تخرجون مع راعينا في إبله ، فتصيبوا من أبواها وألبانها» فقالوا : بلى ، فخرجوا فشرّبوا من أبواها وألبانها فصحوا ، فقتلوا الراعي ، وطرّدوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا ، لفظ مسلم ؛ وفي لفظ لها : من عكل أو عريثة . وفي لفظ : وألقوا في الحرة فجعلوا يستقون ، فلا يسقون .

وفي لفظ لمسلم : ولم يحسمهم . وعند البخاري قال أبو قلابة : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم ، وحادروا الله ورسوله ، ورواه مسلم من طريق هشيم عن عبد العزيز بن صهيب ، وحيد بن أنس ، فذكر نحوه وعنده فارتدوا ؛ وقد أخرجه من رواية قتادة عن أنس بنحوه . وقال سعيد ، عن قتادة : عن عكل وعريثة . ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي ، عن أنس قال : إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك . لأنهم سملوا أعين الرعاء . ورواه مسلم من حديث معاوية بن قرة عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ نفر من عريثة فأسلموا وبايعوه ، وقد وقع بالمدينة الدم وهو البرسام ، ثم ذكر نحو حديثهم وزاد : عنده شباب من الأنصار قريب من عشرين ، فأرسلهم وبعث معهم قافلاً يقفوا أثرهم ، وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله .

وقال حماد بن سلمة : حدثنا قتادة وثابت البناني وحيد الطويل عن أنس بن مالك أن ناساً من عريثة قدموا المدينة فاجتروها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة ، وأمرهم أن يشربوا من أبواها وألبانها ، ففعلوا فصحوا ، فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي ، وساقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجيء بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمر أعينهم وألقاهم في الحرة قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا ؛ ونزلت ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ الآية . وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن مردويه وهذه لفظه . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة عن أنس بن مالك ، منها ما رواه من طريقين عن سلام بن أبي الصهباء ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، قال : ما ندمت على حديث ، ما ندمت على حديث سألني عنه الحجاج ، قال : أخبرني عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ . قال : قلت : قدم على رسول الله ﷺ قوم من عريثة من البحرين ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ مالفوا من بطونهم ، وقد اصفرت ألوانهم ، وضمرت بطونهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبواها وألبانها ، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم ، عمدوا إلى الراعي فقتلوه ، واستاقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم ، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا ، فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول : إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا بحال ذود من الإبل ، فكان الحجاج يحتج بهذا الحديث على الناس .

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا الوليد يعني ابن مسلم ، حدثني سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : كانوا أربعة نفر من عريثة ، وثلاثة نفر من عكل ، فلما أتى بهم قطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، ولم يحسمهم ، وتركهم يلتقمون الحجارة بالخرة ؛ فأنزل الله في ذلك ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ الآية . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن حرب الموصلي ، حدثنا أبو مسعود يعني عبد الرحمن بن الحسن الزجاج ، حدثنا أبو سعيد يعني البقال ، عن أنس بن مالك قال : كان رهط من عريثة أتوا رسول الله ﷺ وهم جهد ، مصفرة ألوانهم ، عظيمة بطونهم ؛ فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبواها وألبانها ، ففعلوا فصفت ألوانهم ، وخصت بطونهم ، وسمنوا ، فقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل ، فبعث النبي ﷺ في طلبهم ، فأتي بهم ، فقتل بعضهم ، وسمر أعين بعضهم ، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم ، ونزلت ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ إلى آخر الآية . وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو علي بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية ؛ فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل ، وأخافوا السليل ، وأصابوا الفرج الحرام ؛ وقال : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال ، عن أبي الزناد ، عن عبد الله بن عبيد الله ، عن عبد الله بن عمر أو عمرو - شك يونس - عن رسول الله ﷺ بذلك ، يعني بقصة العرنيين ، ونزلت فيهم آية المحاربة . ورواه أبو داود والنسائي من طريق أبي الزناد ، وفيه عن ابن عمر من غير شك .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن خلف ، حدثنا الحسن بن حماد عن عمرو بن هاشم ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن إبراهيم ، عن جرير ، قال : قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين ، فأمرهم رسول الله ﷺ فلما صحوا واشتدوا ، قتلوا رعاء اللقاح ، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم ، قال جرير : فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم ، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمل أعينهم ، فجعلوا يقولون : الماء ، ورسول الله ﷺ يقول : النار حتى هلكوا . قال : وكره الله عز وجل سمل الأعين ؛ فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية ؛ هذا حديث غريب ، وفي إسناده الرذي وهو ضعيف ، وفي إسناده فائدة ، وهو ذكر أمير هذه السرية ، وهو جرير بن عبد الله البجلي ؛ وتقدم في صحيح مسلم أن هذه السرية كانوا عشرين فارساً من الأنصار . وأما قوله : فكره الله سمل الأعين ، فأنزل الله هذه الآية ، فإنه منكر ، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء ، فكان ما فعل بهم قصاصاً ، والله أعلم .

وقال عبد الرزاق عن إبراهيم بن محمد الأسلمي ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبي هريرة ، قال : قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلاً ، فأمرهم النبي ﷺ إلى لقاحه ، فشربوا منها حتى صحوا ، ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها ، فطلبوا فأتي بهم النبي ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمر أعينهم . قال أبو هريرة : فبينهم نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ؛ فترك النبي ﷺ سمر الأعين بعد . وروي من وجه آخر عن أبي هريرة . وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد عن عمرو بن محمد المدني ، حدثنا محمد بن طلحة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن أبيه ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن سلمة بن الأكوع قال : كان للنبي ﷺ غلام يقال له يسار ، فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتقه ، وبعثه في لقاح له بالحرّة فكان بها ، قال : فأظهر قوم الإسلام من عرينة ، وجاءوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم ؛ قال : فبعث بهم النبي ﷺ إلى يسار ، فكانوا يشربون من ألبان الأبل حتى انطوت بطونهم ، ثم عدوا على يسار فذبحوه ، وجعلوا الشوك في عينيه ، ثم أطرودوا الأبل ، فبعث النبي ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين ، كبيرهم كرز بن جابر الفهري ، فلحقهم فجاء بهم إليه ، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ؛ غريب جداً . وقد روى قصة العرينيين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر وعائشة وغير واحد ؛ وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً فرحمه الله وأثابه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق ، سمعت أبي يقول : سمعت أبا حزة عن عبد الكريم ، وسئل عن أبوالأبل ، فقال : حدثني سعيد بن جبير عن المحاربين فقال : كان أناس أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : نبايعك على الإسلام ، فبايعوه وهم كذبة ، وليس الإسلام يريدون ؛ ثم قالوا : انا نجتوي المدينة ؛ فقال النبي ﷺ هذه اللقاح تغدوا عليكم وتروح ، فاشربوا من ألبانها وألبانها ؛ قال : فبينما هم كذلك إذ جاءهم الصريخ ، فصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال : قتلوا الراعي ، واستاقوا النعم ، فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس «أن ياخيلى الله اركبي» قال : فركبوا لا ينتظر فارس فارساً ، قال : وركب رسول الله ﷺ على أثرهم ، فلم يزالوا يطلبونهم حتى ادخلوهم مأمئهم ، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم ، فأتوا بهم النبي ﷺ ، فأنزل الله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية ؛ قال : فكان نفوهم حتى ادخلوهم مأمئهم وأرضهم ، ونفوهم من أرض المسلمين ، وقتل نبي الله ﷺ منهم وصلب ، وقطع ، وسمر الأعين ؛ قال : فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد ، قال : ونهى عن المثلة ؛ وقال «ولا تمثلوا بشيء» ، قال : وكان أنس يقول ذلك ، غير أنه قال : احرقهم بالنار بعد ماقتلهم ؛ قال : وبعضهم يقول : هم ناس من بني سليم ، ومنهم من عرينة ، وناس من بجيلة .

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرينيين : هل هو منسوخ ، أو محكم ؟ فقال بعضهم : هو منسوخ بهذه الآية ، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾ ، ومنهم من قال : هو منسوخ بنبي النبي ﷺ عن المثلة ، وهذا القول فيه نظر ، ثم قائله مطالب ببيان تأخر النسخ الذي ادعاه عن المنسوخ ، وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود ، قاله محمد بن سيرين ، وفيه نظر ، فإن قصته متأخرة . وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها ، فإنه أسلم بعد نزول المائدة ؛ ومنهم من قال : لم يسمل النبي ﷺ أعينهم ، وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن ، فبين حكم المحاربين ، وهذا القول أيضاً فيه نظر ، فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل ، وفي رواية سمر أعينهم .

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : ذكرت الليث بن سعد ماكان من سمل النبي ﷺ أعينهم ، وتركه حسمهم حتى ماتوا ، فقال : سمعت محمد بن عجلان يقول : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتباً في ذلك ، وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفي ، ولم يسمل بعدهم غيرهم ؛ قال : وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو يعني الأوزاعي ، فأنكر أن يكون نزلت معاتباً ، وقال بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعينهم ، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم ؛ ورفع عنهم السمل ؛ ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء ، لقوله ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل ، حتى قال مالك في الذي يقاتل الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله . ويأخذ ماعه : إن هذه محاربة ، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول ، ولا اعتبار بعفوه عنه بإسقاط القتل . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لا تكون المحاربة إلا في الطرقات ، فأما في الأمصار فلا ، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده عن يقينته ويعينه .

وقوله تعالى ﴿أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : من شهر السلاح في فة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله ومستند هذا القول أن ظاهر أو للتخيير كما في نفاظر ذلك من القرآن كقوله في جزاء الصيد ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ وكقوله في كفارة اليمين ﴿فإطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة﴾ هذه كلها على التخيير فكذلك فلتكن هذه الآية .

وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال ، كما قال أبو عبد الله الشافعي : أنبأنا إبراهيم بن أبي يحيى عن صالح مولى التوأمة ، عن ابن عباس في قطاع الطريق ، إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . وقد رواه ابن أبي شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان ، عن حجاج ، عن عطية ، عن ابن عباس بنحوه . وعن أبي محمد وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي والحسن وقناة والسدي وعطاء الخراساني نحو ذلك . وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة ، واختلفوا : هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب ، أو يقتله برمح أو نحوه ، أو يقتل أولاً ثم يصلب تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين ، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده ؟ في ذلك كله خلاف محمّر في موضعه ، وبالله الثقة وعليه التكلان .

ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره إن صح سنده ، فقال : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبي حبيب أن عبد الملك بن مروان ، كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل ، وأخافوا السبيل ، وأصابوا الفرج الحرام ، قال أنس : فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب ؛ فقال : من سرق مالا وأخاف السبيل ، فاقطع يده بسرقة ورجله بإخافته ، ومن قتل فاقته ، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فصلبه .

وأما قوله تعالى ﴿وينفوا من الأرض﴾ قال بعضهم : هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام ؛ رواه ابن جرير عن ابن عباس ، وأنس بن مالك وسعيد بن جبيرة والضحاك والربيع بن أنس والزهري والليث بن سعد ومالك بن أنس ؛ وقال آخرون : هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية وقال الشعبي : ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله . وقال عطاء الخراساني ينفي من جند إلى جند سنين ، ولا يخرج من دار الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبيرة وأبو الشعثاء والحسن والزهري والضحاك ومقاتل بن حيان انه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام . وقال آخرون : المراد بالنفي ههنا السجن ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ؛ واختار ابن جرير أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه .

وقوله تعالى : ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا وهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم ، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من

العذاب العظيم يوم القيامة ، وهذا يؤيد قول من قال : إنها نزلت في المشركين ، فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا تشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا يعضه بعضنا بعضاً ، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ، ومن ستره الله فأمره إلى الله : إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه . وعن علي قال : قال رسول الله ﷺ «من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به ، فإله أعدل من أن يشي عقوقته على عبده ، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه ، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه» ؛ ورواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه ؛ وقال الترمذي : حسن غريب . وقد سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث ، فقال : روي مرفوعاً وموقوفاً ، قال : ورفع صحیح . وقال ابن جرير في قوله ﴿ذلك لهم خزي في الدنيا﴾ يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ، ﴿وهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا عذاب عظيم ، يعني عذاب جهنم . وقوله تعالى ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ أما على قول من قال : إنها في أهل الشرك فظاهر ؛ وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم ، فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء ؛ وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة ؛ كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مجاهد ، عن الشعبي قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة ، وكان قد أفسد في الأرض وحارب ، فكلم رجلاً من قريش منهم الحسن بن علي وابن عباس وعبد الله بن جعفر ، فكلموا علياً فيه فلم يؤمنه ، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ، ثم أتى علياً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيت من حارب الله ورسوله ، وسعى في الأرض فساداً ، فقرأ حتى بلغ ﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم﴾ قال : فكتب له أماناً ؛ قال سعيد بن قيس : فإنه حارثة بن بدر ، وكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد عن الشعبي به ؛ وزاد فقال حارثة بن بدر :

ألا بلغن همدان أما لقيتها على النسائي لا يسلم عدو يعيها
لعمري أيها إن همدان تتقي ال إله ويقضي بالكتاب خطيها

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثوري عن السدي ، ومن طريق أشعث ، كلاهما عن عامر الشعبي قال : جاء رجل من مراد إلى أبي موسى وهو على الكوفة في إمارة عثمان رضي الله عنه بعدما صلى المكتوبة ، فقال : يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك ، أنا فلان بن فلان المرادي ، وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً ، وإني تبت من قبل أن تقدروا علي ، فقال أبو موسى ، فقال : إن هذا فلان بن فلان ، وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً ، وإنه تاب من قبل أن تقدروا عليه فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير ، فإن يك صادقاً فسبيل من صدق ، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه ؛ فأقام الرجل ماشاء الله ، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله . ثم قال ابن جرير : حدثني علي ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : قال الليث : وكذلك حدثني موسى بن إسحاق المدني ، وهو الأمير عندنا ، أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال فطلبه الأئمة والعامّة ، فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء نائباً ، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ فوقف عليه فقال : يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه ، فغمد سيفه ، ثم جاء نائباً حتى قدم المدينة من السحر ، فاعتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصل الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغار أصحابه ، فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه فقال : لا سبيل لكم علي جئت نائباً من قبل أن تقدروا علي ، فقال أبو هريرة : صدق ، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية فقال : هذا علي جاء نائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل ، فترك من ذلك كله ، قال : وخرج علي نائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر ، فلحقوا الروم فقبوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر ، فمالت به وبهم فغرقوا جميعاً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَنَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ مَا نُقِيلُ

مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات ، وقد قال بعدها ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ قال سفيان الثوري ، عن طلحة ، عن عطاء ، عن ابن عباس : أي القربة ؛ وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد . وقال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه . وقرأ ابن زيد ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه . وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر :

إذا غفل الواشون عدنا لوصولنا
وعاد التصافي بيننا والوسائل

والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش ؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، أت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة» . [حديث آخر] - في صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة ؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة» .

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان عن ليث ، عن كعب ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا صليتم علي فسلوا لي الوسيلة» . قيل : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال «أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو» . ورواه الترمذي عن بندار ، عن أبي عاصم ، عن سفيان الثوري ، عن ليث بن أبي سليم ، عن كعب قال : حدثني أبو هريرة به ؛ ثم قال : غريب ؛ وكعب ليس بمعروف ، لا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم .

[حديث آخر] عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الباقي بن قانع ، حدثنا محمد بن نصر الترمذي ، حدثنا عبد الحميد بن صالح ، حدثنا ابن شهاب عن ليث ، عن المعل ، عن محمد بن كعب ، عن أبي هريرة رفعه ، قال «صلوا علي صلاتكم وسلوا الله لي الوسيلة» فسألوه ، وأخبرهم أن الوسيلة درجة في الجنة ليس ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا .

[حديث آخر] قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : أخبرنا أحمد بن علي الأبار ، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني ، حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «سلوا الله لي الوسيلة ، فإنه لم يسألني عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيحاً يوم القيامة» ؛ ثم قال الطبراني لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين ، كذا قال . وقد رواه ابن مردويه : حدثنا محمد بن علي بن دحيم ، حدثنا أحمد بن حازم ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن عمرو بن عطاء ، فذكر بإسناده نحوه .

[حديث آخر] - روى ابن مردويه بإسناده عن عمارة بن غزية ، عن موسى بن وردان أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : قال رسول الله ﷺ «إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه» . [حديث آخر] - روى ابن مردويه أيضاً من طريقين عن عبد الحميد بن بحر ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ،

عن الحارث ، عن علي ، عن النبي ﷺ قال «في الجنة درجة تدعى الوسيلة ، فإذا سألتم الله فسلوا لي الوسيلة» قالوا : يا رسول الله ، من يسكن معك ؟ قال «علي وفاطمة والحسن والحسين» هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا الحسن الدشتكي ، حدثنا أبو زهير ، حدثنا سعيد بن طريف عن علي بن الحسين الأزدي مولى سالم بن ثوبان ، قال : سمعت علي بن أبي طالب يتنادي على منبر الكوفة : يا أيها الناس إن في الجنة لأولوتين : إحداهما بيضاء ، والأخرى صفراء ؛ أما البيضاء فإنها إلى بطنان العرش ، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة ، كل بيت منها ثلاثة أميال ، وغرفها وأبوابها وأسرتها وسكانها من عرق واحد ، واسمها الوسيلة ، هي لمحمد ﷺ وأهل بيته ، والصفراء فيها مثل ذلك هي لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته ؛ وهذا أثر غريب أيضاً .

وقوله ﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات ، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والناكرين للدين القويم ، ورغبتهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح ، والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية

الرفيعة ، الأمانة الحسنة مناظرها ، الطيبة مساكنها ، التي من سكنها ينعم لا يئأس ، ويمحي لا يموت ، لا تنبل ثيابه ولا يفنى شبابه .

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بمثل الأرض ذهباً ويمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ، ولهذا قال ﴿وَلَهُمْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي موجع ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهِمُ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ كما قال تعالى : ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية ؛ فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أي دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا يحيد لهم عنها ، وقد قال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم ، كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول : نعم يارب ؛ فيقول الله تعالى : كذبت ، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل ، فيؤمر به إلى النار» ، رواه مسلم والنسائي من طريق حماد بن سلمة بنحوه . وكذا رواه البخاري ومسلم من طريق معاذ بن هشام الدستوائي عن أبيه عن قتادة عن أنس به . وكذا أخرجه من طريق أبي عمران الجوني واسمه عبد الملك بن حبيب عن أنس بن مالك به ، ورواه مطر الوراق عن أنس بن مالك ، ورواه ابن مردويه من طريقه عنه .

ثم روى ابن مردويه من طريق المسعودي عن يزيد بن صهيب الفقير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال : فقلت لجابر بن عبد الله : يقول الله ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهِمُ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ قال : اتل أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية ، ألا إنهم الذين كفروا . وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر عن يزيد الفقير ، عن جابر ، وهذا أبسط سياقاً . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن أبي شيبه الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا مبارك بن فضالة ، حدثني يزيد الفقير قال : جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث ، فحدث أن ناساً يخرجون من النار ، قال : وأنا يومئذ أنكر ذلك ، ففضضت وقلت : ما أعجب من الناس ، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار ، والله يقول ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهِمُ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ الآية ، فأنهري أصحابه ، وكان أحلمهم ، فقال : دعوا الرجل إنما ذلك للكفار ، فقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى قد جمعته . قال : ليس الله يقول ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ فهو ذلك المقام ، فإن الله تعالى يحب أن يخلصهم في النار ماشاء ، لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به . ثم قال ابن مردويه : حدثنا دعلج بن أحمد ، حدثنا عمرو بن حفص السدوسي ، حدثنا عاصم بن علي ، أخبرنا العباس بن الفضل ، حدثنا سعيد بن المهلب ، حدثني طلق بن حبيب قال : كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله ، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها ، يذكر الله فيها خلود أهل النار ؛ فقال : يا طلق ، أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله مني ؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون ، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا ، ثم أخرجوا منها ، ثم أهوى بيدي إلى أذنيه فقال : صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول «يخرجون من النار بعدما دخلوا» ونحن نقرأ كما قرأت .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

ظُلْمِهِ . وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع يد السارق والسارقة . وروى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي ، عن عامر بن شرحبيل الشعبي أن ابن مسعود كان يقرؤها ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ وهذه قراءة شاذة ، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها لا بها ، بل هو مستفاد من دليل آخر ، وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية ، فقرر في الإسلام ، وزيدت شروط آخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتفريقها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح . ويقال : إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش ، قطعوا رجلاً يقال له دويك مولى لبني مليح بن عمرو من خزاعة ، كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال : سرقه قوم فوضعوه عنده ، وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة .

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفي ، قال : سألت ابن عباس عن قوله ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ أخاص أم عام ؟ فقال بل عام ، وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء ، ويحتمل غير ذلك ، فإله أعلم . وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده» وأما الجمهور ، فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره ، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول علي حدة ، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة ، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه ، وجب القطع ، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم ؛ أخرجه في الصحيحين ، قال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم ، وهو أحب ما سمعت في ذلك ، وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه ، عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقاً سرق في زمن عثمان أترجة ، فأمر بها عثمان أن تقوم فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً ، فقطع عثمان يده . قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر ، ولم ينكر ، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي ، وفيه دلالة على القطع في الثار خلافاً للحنفية ، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم ، وللشافعية في اعتبار ربع دينار ، والله أعلم .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً ، أو الحججة في ذلك ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم من طريق الزهري عن عمرة ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً» ولسلم من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، عن عمرة ، عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما سواه . قالوا : وحديث ثمن المجن ، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً ، فهي ثمن ربع دينار ، فأمكن الجمع بهذا الطريق ؛ ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ؛ وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه في رواية عنه ، وأبو ثور وداود بن علي الظاهري ، رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية عنه ، إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي ، فمن سرق واحداً منها أو ما يساويه ، قطع عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها ، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال «اقطعوا في ربع دينار ، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم ، والدينار اثني عشر درهماً . وفي لفظ للنسائي «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن» . قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار ؛ فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم ، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر ، وكذا سفيان الثوري ، رحمهم الله ، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة ، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا ابن غير وعبد الأعلى ، حدثنا محمد بن إسحاق عن أيوب بن موسى ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم ، ثم قال : حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ «لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن» وكان ثمن المجن عشرة دراهم ، قالوا : فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفاً ابن عمر في ثمن المجن ، فالاحتياط الأخذ بالأكثر ، لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحداً منها ، يحكى هذا عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر رحمهم الله تعالى . وقال بعض السلف : لا تقطع الخمس إلا في خمس ، أي في خمسة دنانير أو خمسين درهماً ، وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله . وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة «يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة [أحدها] أنه منسوخ بحديث عائشة ، وفي هذا نظر ، لأنه لا بد من بيان التاريخ . [والثاني] أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن ، قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه . [والثالث] إن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ، ويعتمل أن يكون هذا خرج مخرج الأخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير ، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة ، وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد ، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله وقلة عقله ، فقال :

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تساقض مالنا إلا السكوت له أن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم ، وقد أجابه الناس في ذلك ، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال : لما كانت أمينة ، كانت ثمينة ، ولما خانت هانت . ومنهم من قال : هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة ، فإن في باب الجنائيات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار لثلاثي يميني عليها . وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار ، لثلاثي يسارع الناس في سرقة الأموال ، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب ولهذا قال : «جزاء بما كسبنا نكالاً من الله والله عزيز حكيم» أي مجازاة على صنيعها السيء في أخذها أموال الناس بأيديهم ، فناسب أن يقطع ما استمانا به في ذلك نكالاً من الله ، أي تنكيلاً من الله بها على ارتكاب ذلك ، «والله عزيز» أي في انتقامه ، «حكيم» أي في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

ثم قال تعالى : «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم» أي من تاب بعد سرقة وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور ، وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها ، وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطني من حديث . . . عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة ، فقال : ما إخاله سرق ؛ فقال السارق : بلى يا رسول الله . قال واذهبوا به فاقطعوه ، ثم احسموه ، ثم اتنوني به» فقطع فأتي به فقال «تب إلى الله» فقال : تبت إلى الله ؛ فقال «تاب الله عليك» . وقد روي من وجه آخر مرسلًا ، ورجح إرساله علي بن المدني وابن خزيمة رحمهما الله .

وروى ابن ماجه من حديث ابن هبيرة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصاري ، عن أبيه أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني سرقت جملًا لبني فلان ، فطهرني فأرسل إليهم النبي ﷺ فقالوا : إنا افتقدنا جملًا لنا ، فأمر به فقطعت يده وهو يقول : الحمد لله الذي طهرني منك ، أردت أن تدخلي جسدي النار . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن هبيرة عن يحيى بن عبد الله ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو قال : سرقت امرأة حلياً فجاء الذين سرقتهم ، فقالوا : يا رسول الله ، سرقتنا هذه المرأة ؛ فقال رسول الله ﷺ «اقطعوا يدها اليمنى» فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ «أنت اليوم من خطيبتك كيوم ولدتك أمك» ، قال : فأنزل الله عز وجل «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم» .

وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا حسن ، حدثنا ابن هبيرة ، حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ ، فجاء بها إلى الذين سرقتهم ، فقالوا : يا رسول الله ، إن هذه المرأة سرقتنا . قال قوماً : فنحن نفديها ؛ فقال رسول الله ﷺ «اقطعوا يدها» ، فقالوا : نحن نفديها بخمسائة دينار ؛ فقال «اقطعوا يدها» فقطعت يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل لي من توبة يا رسول الله ؟ قال «نعم أنت اليوم من خطيبتك كيوم ولدتك أمك» ؛ فأنزل الله في سورة المائدة «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم» وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة ، عن عائشة أن قرئاً شأنهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ ؛ فأتى بها رسول الله ﷺ ، فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال «أنشفع في حد من حدود الله عز وجل ؟» فقال له أسامة : استغفر لي

يارسول الله ، فلما كان العشي ، قام رسول الله ﷺ فاخطب فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها» ، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها . قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد ، وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ ، وهذا لفظ مسلم . وفي لفظ له عن عائشة قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحد ، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها .

وعن ابن عمر قال : كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتجحد ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها ، رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وهذا لفظه ، وفي لفظ له أن امرأة كانت تستعير الخلى للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله ﷺ «لنتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله ، وترد ما تأخذ على القوم» ، ثم قال رسول الله ﷺ «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها» . وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب الأحكام ، والله الحمد والمنة ، ثم قال تعالى : ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي هو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه ، الذي لا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد ﴿يعفو لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ .

يَتَائِبَهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن
قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ بِحَرْفٍ مِنَ الْكَلِمِ
مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ
تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ
عَنَّهُمْ وَإِنْ تَعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
﴿١٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
﴿١٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ آسَلُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ
بِمَا آسَسَتْ حِفْظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْسَبُوا وَيَتَّيَبُوا
تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾

نزلت هذه الآيات الكريمة في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ أي أظهروا الإيمان بالسنتهم ، وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ومن الذين هادوا﴾ أعداء الإسلام وأهله ، وهؤلاء كلهم ﴿سماعون للكذب﴾ أي مستجيبون له ، منفعلون عنه ، ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد ، وقيل : المراد أنهم يتسمعون الكلام وينبونه إلى قوم آخرين عن لا يحضر عندك من أعدائك ﴿يخرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عطلوه ، وهم يعلمون ، ﴿يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تأتوه فاحذروا﴾ قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً ، وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد ، فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ، والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحسن منهم ، فحرفوه وأصلحوا فيها بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين ، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيها بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تبعوه في ذلك .

وقد وردت الأحاديث في ذلك فقال مالك ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : ان اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا ؛ فقال لهم رسول الله ﷺ «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟» فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، قال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إن فيها الرجم ؛ فأتوا بالتوراة ، فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده ، فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم ، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجما ، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقبها الحجارة ، أخرجا ؛ وهذا لفظ البخاري وفي لفظ له : فقال لليهود «ما تصنعون بها ؟» قالوا : نسخم وجوهها ونخزبها ، قال «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور : اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها ، فوضع يده عليه فقال : ارفع يدك فرفع ، فإذا آية الرجم تلوح ، قال : يا محمد إن فيها آية الرجم ولكننا نكتأه بيننا ، فأمر بها فرجما .

وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا ، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال «ما تجدون في التوراة على من زنى ؟» قالوا : نسود وجوهها ونحممها ، ونحملها ونخالف بين وجوهها ويظاف بها . قال «فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» قال : فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مر بآية الرجم ، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم ، وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ : مره فليرفع يده فرفع يده ، فإذا تحتها آية الرجم ، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجما . قال عبد الله بن عمر : كنت فيمن رجما ، فلقد رأيته يقبها من الحجارة بنفسه . وقال أبو داود : حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه عن ابن عمر قال : أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف ، فأتاهم في بيت المدارس ؛ فقالوا : يا أبا القاسم ، إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم . قال : ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ، ثم قال «اتوني بالتوراة ، فأتي بها ، فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ، وقال «أمنت بك وبمن أنزلك» ثم قال «اتوني بأعلمكم» فأتي بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع .

وقال الزهري : سمعت رجلاً من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه ، ونحن عند ابن المسيب ، عن أبي هريرة قال : زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض : اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف ، فإن افتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججتنا بها عند الله ، قلنا : فتيا نبي من أنبيائك . قال : فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه ، فقالوا : يا أبا القاسم ، ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا ؟ فلم يكلمهم بكلمة حتى أتى بيت مدارسهم ، فقام على الباب فقال «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن ؟» قالوا : يحجم ويحبب ويجلد ، والتجيبه أن يجمل الزانيان على حمار وتقابل أفتيتهما ويظاف بها ، قال : وسكت شاب منهم ، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ، أظ به رسول الله ﷺ النشدة ، فقال : اللهم إذ نشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم ؛ فقال النبي ﷺ «فما أول ما ارتخصتم أمر الله» قال : زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عند الرجم ، ثم زنى رجل في أثره من الناس فأراد رجمه ، فحال قومه دونه وقالوا : لا نرجم صاحبنا حتى نميء بصاحبك فترجمه ، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم ؛ فقال النبي ﷺ «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بها فرجما ؛ قال الزهري : فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا» فكان النبي ﷺ منهم ؛ رواه أحمد وأبو داود وهذا لفظه ، وابن جرير .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة ، عن البراء بن عازب ، قال : مر على رسول الله ﷺ يهودي محمم مجلود ، فدعاهم ، فقال «أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟» فقالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم ؟» فقال : لا والله ، ولولا أنك نشدنتني بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزاني في كتابنا الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا فكان إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والضعيف ، فاجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النبي ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» قال : فأمر به فرجم ، قال : فانزل الله عز وجل «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» إلى قوله «يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه» أي يقولون : اتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا ، إلى قوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» قال في اليهود ، إلى قوله «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» قال : في الكفار كلها ، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به .

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا مجاهد بن سعيد الهمداني عن الشعبي ، عن جابر بن عبد الله ، قال : زنى رجل من أهل فدك ، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة ، أن سلوا محمداً عن ذلك ، فإذا أمركم بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ، فسألوه عن ذلك ، فقال «أرسلوا إلي أعلم رجلين فيكم» فجاءوا برجل أعور يقال له ابن صوريا ، وآخر ؛ فقال لهما النبي ﷺ «أنتما أعلم من قبلكما» فقالا : قد دعا قومنا لذلك ؛ فقال النبي ﷺ لهما «أليس عندكما التوراة فيها حكم الله» قالوا : بلى ؛ فقال النبي ﷺ «فأنشدكم بالذي فلق البحر ليني إسرائيل ، وظلل عليكم الغمام ، وأنجاكم من آل فرعون ، وأنزل المن والسلوى على بني إسرائيل ، ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقال أحدهما للآخر : مانشدت بمثله قط ؛ ثم قال : نجد تردد النظر زنية ، والاعتناق زنية ، والتقبيل زنية ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدىء ويعد ، كما يدخل الميل في المكحلة ، فقد وجب الرجم ، فقال النبي ﷺ «هوذاك» فأمر به فرجم ؛ فنزلت ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾ . ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث مجاهد به نحوه .

ولفظ أبي داود عن جابر ، قال : جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا ، فقال «اتنوني بأعلم رجلين منكم» فأتوه بابني صوريا ، فنشدهما «كيف تجدان أمر هذين في التوراة؟» قالوا : نجد إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره في فرجها مثل الميل في المكحلة ، رجما ؛ قال «فما يمنعكم أن ترجوهما؟» قالوا : ذهب سلطاننا فكرهنا القتل ، فدعا رسول الله ﷺ بالشهود ، فجاء أربعة ، فشهدوا أنهم رأوا ذكره مثل الميل في المكحلة ، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما ؛ ثم رواه أبو داود عن الشعبي وإبراهيم النخعي مرسلأ ، ولم يذكر فيه : فدعا بالشهود فشهدوا . فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ ، حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا بحالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك ، وسؤاله إياهم عن ذلك ، ليقرهم على ما بأيديهم مما تواطأوا على كتمانهم وجهده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة ؛ فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه بأن زيعهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، وعُدوهم إلى تحكيم رسول الله ﷺ إنما كان عن هوى منهم ، وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ؛ ولهذا قالوا ﴿إن أوتيتم هذا﴾ أي : الجلد والتحميم ، فخذوه ، أي اقبلوه ، ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أي من قبوله واتباعه .

قال الله تعالى : ﴿ومن يرد الله فتنته فلن نملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم فهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب﴾ أي الباطل ﴿أكألون للسحت﴾ أي الحرام ، وهو الرشوة ؛ كما قاله ابن مسعود وغير واحد ، أي ومن كانت هذه صفته كيف يظهر الله قلبه وأنى يستجيب له ؛ ثم قال لنبية ﴿فإن جاءوك﴾ أي يتحاكمون إليك ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم ، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدي وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والحسن وغير واحد : هي منسوخة بقوله ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ أي بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ .

ثم قال تعالى منكرأ عليهم في آرائهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً ، ثم خرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم ، فقال ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران ، فقال ﴿إننا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يجرّفونها ، ﴿والربايون والأحبار﴾ أي وكذلك الربانيون منهم ، وهم العلماء العباد ، والأحبار وهم العلماء ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهره ويعملوا به ، ﴿وكانوا عليه شهداء فلا تحشوا الناس واخشوني﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني ، ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ فيه قولان سيأتي بيانها .

سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمات

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : إن الله أنزل : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الظالمون وأولئك هم

الفاسقون ؛ قال : قال ابن عباس : أنزلها الله في الطائفتين من اليهود ، وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبي ﷺ ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق ؛ فقالت الذليلة : وهل كان في حيين دينها واحد ، ونسبها واحد ، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا تعطيكم فكادت الحرب تبيح بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيزة ، فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم ، فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيهم إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه ، فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله ﷺ ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ ، أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ فيهم والله أنزل ، وإياهم عنى الله عز وجل . ورواه أبو داود من حديث ابن أبي الزناد عن أبيه بنحوه .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا هناد بن السري وأبو كريب ، قالا : حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، حدثني داود بن الحصين عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن الآيات التي في المائدة قوله ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم - إلى المقسطين﴾ إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة ، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف ، تؤدي لهم الدية كاملة ، وأن قريظة كانوا يؤدي لهم نصف الدية ، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك ، فجعل الدية في ذلك سواء ، والله أعلم أي ذلك كان ، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث ابن إسحاق بنحوه .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن علي بن صالح ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كانت قريظة والنضير ، وكانت النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل القريظي رجلاً من النضير قتل به ، وإذا قتل النضيري رجلاً من قريظة ودي بمائة وسق من تمر ، فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة ؛ فقالوا : ادفنوه إليه ؛ فقالوا : بيننا وبينكم رسول الله ﷺ ، فنزلت ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ ورواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث عبيد الله بن موسى بنحوه . وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حيان وابن زيد وغير واحد .

وقد روى العوفي وعلي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا ، كما تقدمت الأحاديث بذلك ، وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد ، فنزلت هذه الآيات في ذلك كله ، والله أعلم ، ولهذا قال بعد ذلك ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين﴾ إلى آخرها ، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم : نزلت في أهل الكتاب ، زاد الحسن البصري : وهي علينا واجبة . وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري ، عن منصور ، عن إبراهيم ، قال : نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ، ورضي الله لهذه الأمة بها ، رواه ابن جرير .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم أخبر عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل ، عن علقمة ومسروق أنها سألا ابن مسعود عن الرشوة ، فقال : من السحت . فقال : فقالا : وفي الحكم ، قال : ذاك الكفر ، ثم تلا ، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ وقال السدي ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ يقول : ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً أو جراً وهو يعلم ، فهو من الكافرين ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقرب به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق ؛ رواه ابن جرير ، ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب ، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب ، وقال عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن زكريا ، عن الشعبي : ومن لم يحكم بما أنزل الله ، قال : للمسلمين . وقال ابن جرير : حدثنا ابن المنثي ، حدثنا عبد الصمد ، حدثنا شعبة عن ابن أبي السفر ، عن الشعبي ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال : هذا في المسلمين ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال : هذا في اليهود ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ قال : هذا في النصارى ؛ وكذا رواه هشيم والثوري ،

عن زكريا بن أبي زائدة ، عن الشعبي وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا معمر عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : سئل ابن عباس عن قوله ﴿ومن لم يحكم﴾ الآية ، قال : هي به كفر . قال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله . وقال الثوري ، عن ابن جريج ، عن عطاء أنه قال : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ؛ رواه ابن جرير . وقال وكيع ، عن سعيد المكي ، عن طاوس ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال : ليس بكفر ينقل عن الملة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا سفيان بن عيينة ، عن هشام بن حجير ، عن طاوس ، عن ابن عباس في قوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه . ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث سفيان بن عيينة ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسَانَ

بِاللِّسَانِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَنْ نَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارٌ لَهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ

هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه ، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً ، ويقيدون النضري من القرظي ، ولا يقيدون القرظي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً ، وقال ههنا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، فخالفوا وظلموا وتدعوا على بعضهم بعضاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك عن يونس بن يزيد ، عن علي بن يزيد أخي يونس بن يزيد ، عن الزهري ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿وكنبتنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين﴾ نصب النفس ورفع العين ؛ وكذا رواه أبو داود والترمذي والحاكم في مستدرکه من حديث عبد الله بن المبارك ، وقال الترمذي حسن غريب وقال البخاري تفرد ابن المبارك بهذا الحديث ، وقد استدلل كثير من ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقررًا ولم ينسخ ، كما هو المشهور عن الجمهور ، وكما حكاها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نص الشافعي ، وأكثر الأصحاب هذه الآية حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنائيات عند جميع الأئمة . وقال الحسن البصري : هي عليهم وعلى الناس عامة ، رواه ابن أبي حاتم : وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووي في هذه المسألة ثلاثة أوجه ، ثالثها أن شرع إبراهيم حجة دون غيره : وضح منها عدم الحجية ؛ ونقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني أفولاً عن الشافعي ، وأكثر الأصحاب ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا ، فانه أعلم .

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه الشامل ، إجماع العلماء ، على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه ؛ وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ؛ وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم «أن الرجل يقتل بالمرأة» ؛ وفي الحديث الآخر «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ؛ وهذا قول جمهور العلماء ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ، لأن ديتها على النصف من دية الرجل ؛ وإليه ذهب أحمد في رواية ، وحكى عن الحسن وعطاء وعثمان البستي ، ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها بل تجب ديتها ، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحر بالعبد ، وقد خالفه الجمهور فيها ؛ ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال . قال رسول الله ﷺ «لا يقتل مسلم بكافر» وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ، ولا يقتلون حرًا بعبد ؛ وجاء في ذلك أحاديث لا تصح ؛ وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قوهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة .

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ، حدثنا حميد عن أنس بن مالك أن الربيع عمه أنس ، كسرت ثنية جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو

فأبوا ، فاتوا رسول الله ﷺ فقال «القصاص» ؛ فقال أخوها أنس بن النضر : يا رسول الله ، تكسر ثنية فلانة ؛ فقال رسول الله ﷺ «يا أنس كتاب الله القصاص» قال : فقال : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة ؛ قال : فرضي القوم فعمفوا وتركوا القصاص ؛ فقال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» أخرجاه في الصحيحين ؛ وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثني الأنصاري في الجزء المشهور من حديثه ، عن حميد ، عن أنس بن مالك أن الربيع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت ثنيتهما ، فعوضوا عليهم الأرض فأبوا ، فطلبوا الأرض والعمف فأبوا ، فاتوا رسول الله ﷺ فأمرهم بالقصاص ، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال : يا رسول الله ، أتكسر ثنية الربيع ؟ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما ، فقال النبي ﷺ «يا أنس كتاب الله القصاص» فعفا القوم ؛ فقال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه البخاري عن الأنصاري بنحوه .

وروى أبو داود : حدثنا أحمد بن حنبل ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي عن قتادة ، عن أبي نصره ، عن عمران بن حصين أن غلاماً لأناس فقراء ، قطع أذن غلام لأناس أغنياء ، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، إنا أناس فقراء ، فلم يجعل عليه شيئاً ؛ وكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهويه ، عن معاذ بن هشام الدستوائي ، عن أبيه ، عن قتادة به . وهذا إسناد قوي ، رجاله كلهم ثقات ، وهو حديث مشكل ، اللهم إلا أن يقال : إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه ، ولعله تحمل أرض ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء أو استعفاهم عنه . وقوله تعالى : ﴿والجروح قصاص﴾ قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقت العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتززع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونسأؤهم ، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، ويستوي فيه العبيد رجالهم ونسأؤهم فيما بينهم ، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

قاعدة مهمة

الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع ، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ؛ وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها ، لأنه مخوف خطر . وقال أبو حنيفة وصاحبه : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابن عباس ؛ وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهري وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز ؛ وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد ، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ؛ وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن ، وحديث الربيع لا حجة فيه لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية ، وجائز أن تكون سقطت من غير كسر ، فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع ، وتمموا الدلالة مما رواه ابن ماجه من طريق أبي بكر بن عياش ، عن دهشم بن قران ، عن غمران بن جارية ، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي : أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها ، فاستعدى النبي ﷺ فأمر له بالدية ؛ فقال : يا رسول الله ، أريد القصاص ، فقال : خذ الدية ، بارك الله لك فيها ، ولم يقض له بالقصاص . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد ، ودهشم بن قران العكلي ضعيف ، أعرابي ليس حديثه مما يحتج به ، وغمران بن جارية ضعيف ، أعرابي أيضاً ، وأبوه جارية بن ظفر المذكور في الصحابة ، ثم قالوا : لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجني عليه ، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه ، فلا شيء له ؛ والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته ، فجاء إلى النبي ﷺ فقال : أئدني ؛ فقال «حتى تبرأ» ، ثم جاء إليه فقال : أئدني ، فأقاده ؛ فقال : يا رسول الله عرجت ؛ فقال «قد نهبك فعصيتني ، فأبعدك الله وبطل عرجك» ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه ، تفرد به أحمد .

[مسألة] فلو اقتص المجني عليه من الجاني فمات من القصاص ، فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم . وقال أبو حنيفة : تجب الدية في مال المقتص . وقال عامر والشعبي وعطاء وطاوس وعمر بن دينار والحارث العكلي وابن أبي ليلى وهما بن أبي سليمان ، والزهري والثوري تجب الدية على عاقلة المقتص له . وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البستي : يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ، ويجب الباقي في ماله .

وقوله تعالى : ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿فمن تصدق به﴾ يقول :

فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب . وقال سفيان الثوري ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : فمن تصدق به فهو كفارة للجراح وأجر المجروح ، على الله عز وجل ، رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : وروي عن خيشمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليه وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك .

[الوجه الثاني] ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا حماد بن زاذان ، حدثنا حرمي يعني ابن عمارة ، حدثنا شعبة عن عمارة يعني ابن أبي حفصة ، عن رجل ، عن جابر بن عبد الله في قول الله عز وجل ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ قال : للمجروح ؛ وروي عن الحسن البصري وإبراهيم النخعي في أحد قوليه وأبي إسحاق الأحمدي نحو ذلك ؛ وروي ابن جرير عن عامر الشعبي وقتادة مثله . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا شعبة عن قيس يعني ابن مسلم ، قال : سمعت طارق بن شهاب يحدث عن الهيثم بن العريان النخعي ، قال : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية امر شبيبها بالموالي ، فسألته عن قول الله ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ قال : يهدم عنه من ذنوبه بقدر ماتصدق به ؛ وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم ؛ وكذا رواه ابن جرير من طرق سفيان وشعبة . وقال ابن مردويه : حدثني محمد بن علي ، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي ، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهري ، حدثنا يحيى بن سليمان الجعفي ، حدثنا معلى يعني ابن هلال أنه سمع أبان بن تغلب عن العريان بن الهيثم بن الأسود ، عن عبد الله بن عمرو ، عن أبان بن تغلب ، عن الشعبي ، عن رجل من الأنصار ، عن النبي ﷺ في قوله ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ قال : «هو الذي تكسر سنه ، أو تقطع يده أو يقطع الشيء منه أو يجرح في يده فيعفو عن ذلك» - قال - فيحط عنه قدر خطاياها ، فإن كان ربع الدية فربع خطاياها ، وإن كان الثلث فثلث خطاياها ، وإن كانت الدية حطت عنه خطاياها كذلك» . ثم قال ابن جرير : حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة ، حدثنا ابن فضيل عن يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي السفر قال : دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار ، فاندقت نتيته ، فرفعه الأنصاري إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل ، قال : شأنك وصاحبك ، قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه ، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة» فقال الأنصاري : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي ، فحط سبيل القرشي ؛ فقال معاوية : مروا له بما ؛ هكذا رواه ابن جرير .

ورواه الإمام أحمد فقال : حدثنا وكيع ، حدثنا يونس بن أبي إسحاق ، عن أبي السفر قال : كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار ، فاستعدى عليه معاوية ؛ فقال معاوية : إنا سنرضيه ، فألح الأنصاري ، فقال معاوية : شأنك بصاحبك ، وأبو الدرداء جالس ، فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيتصدق به ، إلا رفعه الله به درجة وحط به عنه خطيئة» فقال الأنصاري : فإني قد عفوت ؛ وهكذا رواه الترمذي من حديث ابن المبارك ، وابن ماجه من حديث وكيع ، كلاهما عن يونس بن أبي إسحاق به ، ثم قال الترمذي : غريب من هذا الوجه ، ولا أعرف لأبي السفر سماعاً من أبي الدرداء .

وقال ابن مردويه : حدثنا دعلج بن أحمد ، حدثنا محمد بن علي بن زيد ، حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا سفيان عن عمران بن ظبيان ، عن عدي بن ثابت أن رجلاً أهتم فمه رجل على عهد معاوية رضي الله عنه ، فأعطي دية ، فأبى إلا أن يقتص ، فأعطي ديتين فأبى ، فأعطي ثلاثاً فأبى ، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «من تصدق بدم فما دونه ، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت» . وقال الإمام أحمد : حدثنا شريح بن النعمان ، حدثنا هشيم عن المغيرة ، عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها ، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به» ورواه النسائي عن علي بن حجر ، عن جرير بن عبد الحميد . ورواه ابن جرير عن محمود بن خدش ، عن هشيم ، كلاهما عن المغيرة به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن مجاهد ، عن عامر ، عن المحرر ابن أبي هريرة ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال «من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفارة له» . وقوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قد تقدم عن طائوس وعطاء أنها قالا : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، فسق دون فسق .

وَقَفِينَا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مَصْدِقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُوَ آيَاتُهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمَصْدِقًا لِمَا بَيَّنَّ

يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُرَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى : ﴿وقفينا﴾ أي اتبعنا على آثارهم ، يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها ، ﴿وأتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ، ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي متبعا لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبي إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه ، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة . وقوله تعالى : ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ، للمتقين ، أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

وقوله تعالى : ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ قرء وليحكم أهل الإنجيل بالنصب على أن اللام لام كي ، أي وأتينا الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم ، وقرء وليحكم بالجزم على أن اللام لام الأمر ، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، وما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد ، كما قال تعالى : ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهم مكتوباً عندهم في التوراة﴾ إلى قوله ﴿المفلحون﴾ ؛ ولهذا قال ههنا ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق ، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى ، وهو ظاهر من السياق .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاوِزًا اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْتُمْ أَنبَاءَ رَبِّ اللَّهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا يَقُومُ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله باقامته واتباع ما فيه ، كما تقدم بيانه ، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم ؛ فقال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به ، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر الذين اتقادوا لأمر الله ، واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من مجيء محمد عليه السلام لمفعولاً ، أي لكائناً لا عمالة حسن ولا بد .

وقوله تعالى : ﴿ومهيماً عليه﴾ قال سفيان الثوري وغيره ، عن أبي إسحاق ، عن التميمي ، عن ابن عباس : أي مؤمناً عليه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله . وروي

عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك ، وقال ابن جريج : القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، وعن الوالي عن ابن عباس **﴿ومهمناً﴾** أي شهيداً ؛ وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي . وقال العوفي عن ابن عباس **﴿ومهمناً﴾** أي حاكماً على ما قبله من الكتب ؛ وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتاب وخاتماً أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ، مالمس في غيره ، ولهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ؛ فقال تعالى : **﴿إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون﴾** فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وابن أبي نجيج عن مجاهد ، أنهم قالوا في قوله **﴿ومهمناً عليه﴾** يعني محمداً **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** على القرآن فإنه صحيح في المعنى ، ولكن في تفسير هذا بهذا نظر ، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظر ، وبالجملة فالصحيح الأول . وقال أبو جعفر بن جرير بعد حكايته له عن مجاهد : وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب ، بل هو خطأ ، وذلك أن المهيمن عطف على المصدق ، فلا يكون إلا صفة لما كان المصدق صفة له ، قال : ولو كان الأمر كما قال مجاهد لقال : وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، مهمناً عليه ، يعني من غير عطف .

وقوله تعالى : **﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله أي فاحكم يا محمد بين الناس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك ؛ وهكذا وجهه ابن جرير بمعناه ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : كان النبي **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** نخبراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ، فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾** فأمر رسول الله **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** أن يحكم بينهم بما في كتابنا .**

وقوله **﴿ولا تتبع أهواءهم﴾** أي آراءهم التي اصطلحوا عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ؛ ولهذا قال تعالى : **﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾** أي لا تتصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء . وقوله تعالى : **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾** قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن يوسف بن أبي إسحاق ، عن أبي إسحاق ، عن التميمي ، عن ابن عباس **﴿لكل جعلنا منكم شرعة﴾** قال : سبيلاً . وحدثنا أبو سعيد ، حدثنا وكيع عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن التميمي ، عن ابن عباس **﴿ومنهاجاً﴾** قال : سنة ؛ وكذا روى العوفي عن ابن عباس **﴿شرعة ومنهاجاً﴾** سبيلاً وسنة ؛ وكذا روي عن مجاهد وعكرمة والحسن البصري وقتادة والضحاك والسدي وأبي إسحاق السبيعي ، أنهم قالوا في قوله **﴿شرعة ومنهاجاً﴾** أي سبيلاً وسنة ؛ وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد ، أي وعطاء الخراساني عكسه **﴿شرعة ومنهاجاً﴾** أي سنة وسبيلاً ، والأول أنسب ، فإن الشرعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يتبدأ فيه إلى الشيء ، ومنه يقال : شرع في كذا ، أي ابتداء فيه ، وكذا الشريعة وهي ما يشرع فيها إلى الماء . أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل ، والسنن الطرائق .

فتفسير قوله **﴿شرعة ومنهاجاً﴾** بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس ، والله أعلم . ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان ، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد ؛ كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله **﴿صلى الله عليه وسلم﴾** قال **﴿نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ، ديننا واحد﴾** يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمته كل كتاب أنزله ؛ كما قال تعالى **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** وقال تعالى : **﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾** الآية ، وأم الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة : قوله **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾** يقول : سبيلاً وسنة ، والسنن مختلفة ، هي في التوراة شريعة ، وفي الإنجيل شريعة ، وفي الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ليعلم من يطعمه ممن يعصيه ، والدين الذي لا يقبل الله غيره ، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقيل : المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ومعناه لكل جعلنا القرآن منكم أيها الأمة شرعة ومنهاجاً ، أي هو

لكم كلكم تقتدون به ، وحذف الضمير المنصوب في قوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أي جعلناه ، يعني القرآن ، شرعة ومنهاجاً ، أي سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة ، وستة أي طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً ؛ هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله ، والصحيح القول الأول ، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة ، لما صح أن يقول ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة ، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة ، التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد ، وشرعية واحدة ، لا ينسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ ، الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيُلَوكُمْ فِيهَا آتَاكُمْ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويشيهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله . وقال عبد الله بن كثير ﴿فِيهَا آتَاكُمْ﴾ يعني من الكتاب .

ثم إنه تعالى نديهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها ؛ فقال ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله ، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله ؛ ثم قال تعالى : ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق ، فيجزئ الصادقين بصدقهم ، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة . وقال الضحاک ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعني أمة محمد ﷺ ، والأول أظهر . وقوله ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ﴾ بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم . تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه ؛ ثم قال ﴿وَاحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي واحذر أعدائك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من أمور ، فلا تغتر بهم ، فإنهم كذبة كفره خونة ، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالمهم ، ﴿وَإِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ لِفَاسِقُونَ﴾ أي إن أكثر الناس الخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مِنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية .

وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت ، حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة . عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس ، بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلمنا فتنه عن دينه ، فأتوه فقالوا : يا محمد إنك قد عرفت أن أجبار يهود ، وأشرافهم ، وساداتهم ، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك ، فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك رسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ﴾ بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴿إِلَى قَوْلِهِ﴾ لقوم يوقنون ﴿﴾ ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التثار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم الياسق ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى : من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ؛ وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ؛ فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وستة رسول الله ﷺ ؛ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير ؛ قال تعالى : ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وأمن به ، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقهم من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هلال بن فياض ، حدثنا أبو عبيدة الناجي قال : سمعت الحسن يقول : من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية . وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح ، قال : كان طاوس إذا سأله رجل : أفضل بين ولدي في النحل ؟ قرأ ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية ؛ وقال

الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الخوطي ، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين ، عن نافع بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «أبغض الناس إلى الله عز وجل ، من يتغني في الإسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه» . وروى البخاري عن أبي اليمان بإسناده نحوه بزيادة .

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ وَأَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ . فَيُصِيبُوا عَلَىٰ مَا آسَرُوا وَإِن أَنفُسَهُمْ يَتَذَمَّرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى ، الذين هم أعداء الإسلام وأهله - قاتلهم الله - ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعدهم من يتعاطى ذلك ؛ فقال ﴿ومن يتوهم منكم فإنه منهم﴾ الآية . قال ابن أبي حاتم : حدثنا كثير بن شهاب ، حدثنا محمد يعني ابن سعيد بن سابق ، حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك بن حرب ، عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد ، وكان له كاتب نصراني ، فرفع إليه ذلك ، فعجب عمر وقال : إن هذا لحفيظ ، هل أنت قارئ لنا كتابا في المسجد جاء من الشام ؟ فقال : إنه لا يستطيع ؛ فقال عمر : أجنب هو؟ قال : لا بل نصراني . قال : فانتهرني وضرب فخذي ، ثم قال : أخرجوه ؛ ثم قرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الآية ؛ ثم قال : حدثنا محمد بن الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا عثمان بن عمر ؛ أنبأنا أبو عون عن محمد بن سيرين ، قال : قال عبد الله بن عتبة : ليق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر . قال : فظننا يريد هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الآية ؛ وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل عن عاصم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب ، فقال : كل ، قال الله تعالى : ﴿ومن يتوهم منكم فإنه منهم﴾ ، وروي عن أبي الزناد نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وريب ونفاق ، يسارعون فيهم ، أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ، ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين ، فتكون لهم آياد عند اليهود والنصارى ، فينتفعهم ذلك . عند ذلك قال الله تعالى : ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قال السدي : يعني فتح مكة . وقال غيره : يعني القضاء والفصل ، ﴿أو أمر من عنده﴾ . قال السدي : يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ، ﴿فَيُصِيبُوا﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من الموالاته ، نادمين أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ، ولا دفع عنهم محذورا ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين ، لا يدري كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم واقتراؤهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ .

وقد اختلف القراء في هذا الحرف فقراه الجمهور بابنات الواو في قوله ﴿ويقول الذين﴾ ، ثم منهم من رفع ويقول : على الابتداء ، ومنهم من نصب عطفاً على قوله ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أو أمر من عنده ﴿فتقديره أن يأتي وأن يقول وقرأ أهل المدينة ﴿يقول الذين آمنوا﴾ بغير واو ؛ وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير . قال ابن جرير عن مجاهد ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ أو أمر من عنده ﴿تقديره حينئذ﴾ يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات ؛ فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد : أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأوي إليه وأتهدد

معه ، نعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث . وقال الآخر أما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأوي إليه وأنصر معه ، فأنزل الله ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات ؛ وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه أي أنه الذبيح ، رواه ابن جرير .

وقيل : نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول ؛ كما قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن إدريس قال : سمعت أبي عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي ويأبأ الحباب ، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت ، فهو لك دونه قال : قد قبلت ، فأنزل الله عز وجل ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيتين .

ثم قال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزهري : قال : لما انهزم أهل بدر ، قال المسلمون لأوليائهم من اليهود : أسلموا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر ، فقال مالك بن الصيف : أعركم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال ، أما لو أسرنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا ؛ فقال عبادة بن الصامت : يا رسول الله ، إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم كثيراً سلاحهم شديدة شوكتهم ، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود ، ولا مولى لي إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : لكني لا أبرأ من ولاية يهود ، إني رجل لا بد لي منهم ؛ فقال رسول الله ﷺ ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية .

وقال : محمد بن إسحاق : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع ، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال : فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد أحسن في موالي وكانوا حلفاء الخزرج ، قال : فأبأ على رسول الله ﷺ ؛ فقال : يا محمد أحسن في موالي ، قال : فأعرض عنه . قال : فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ «أرسني» ؛ وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظلماً ؛ ثم قال «ويحك أرسلني» قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصديني في غداة واحدة امرؤ أختى الدوائر ، قال : فقال رسول الله ﷺ «هم لك» قال محمد بن إسحاق : فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت ، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي ، وقام دونهم ، ومشي عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من خلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله ورسوله من خلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من خلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار ، وولايتهم ، وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة ﴿يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهِنَّ فَيَتَوَلَّهِنَّ فَيَتَوَلَّهِنَّ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زيادة عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عروة ، عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوذه ، فقال له النبي ﷺ «قد كنت أمهالك عن حب يهود» فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات ؛ وكذا رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحاق .

يَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ رِزْقِكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَافٌ عَلَى الْكُفْرِينَ يَجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله سيستبدل به من هو خيراً لها منه ؛ وأشد منعة ، وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ أي بممتنع ولا صعب . وقال تعالى ههنا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل . قال محمد بن كعب : نزلت في الولاية من قريش . وقال الحسن البصري : نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه ، رواه ابن أبي حاتم . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : سمعت أبا بكر بن عياش يقول : في قوله ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ هم أهل القادسية . وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد : هم قوم من سبأ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن عمرو ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ قال : ناس من أهل اليمن ، ثم من كندة ، من السكون .

وحدثنا أبي ، حدثنا محمد بن المصفي ، حدثنا معاوية يعني ابن حفص ، عن أبي زياد الخلفاني ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله ، قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ . قال « هؤلاء قوم من أهل اليمن ، ثم من كندة ، ثم من السكون ، ثم من تحيب » ، وهذا حديث غريب جداً . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمر بن شبة ، حدثنا عبد الصمد يعني ابن عبد الوارث ، حدثنا شعبة عن سماك ، سمعت عياضاً يحدث عن أبي موسى الأشعري ، قال : لما نزلت ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ قال رسول الله ﷺ « هم قوم هذاه » . ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه . وقوله تعالى : ﴿ أذلة على المؤمنين أذرة على الكافرين ﴾ هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، متمززاً على خصمه وعدوه ، كما قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشد على الكفار رحماء بينهم ﴾ وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه .

وقوله عز وجل ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصددهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عدل عادل ، قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا سلام أبو المنذر عن محمد بن واسع ، عن عبد الله بن الصامت ، عن أبي ذر ، قال : أمرني خليلي ﷺ بسبع : أمرني بحب المساكين والدنومتهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقني ، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأ ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهم من كنز تحت العرش .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان عن أبي المثني ، أن أبا ذر رضي الله عنه ، قال : بايعني رسول الله ﷺ خساً ، وواثقني سبعا ، وأشهد الله علي سبعا - أني لا أخاف في الله لومة لائم . قال أبو ذر : فدعاني رسول الله ﷺ ، فقال « هل لك إلى بيعة ، ولك الجنة ؟ » قلت : نعم ، وبسطت يدي ؛ فقال النبي ﷺ وهو يشترط علي « أن لا تسأل الناس شيئاً » قلت : نعم . قال « ولا سوطك وإن سقط منك » . يعني تنزل إليه فتأخذه . وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا محمد بن الحسن ، حدثنا جعفر عن المعلل الفردوسي ، عن الحسن ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ « ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شاهده ، فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم » تفرد به أحمد .

وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان عن زيد ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال فلا يقول فيه فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول : مخافة الناس ، فيقول : إياي أحق أن تخاف » . ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به . وروى أحمد وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن أبي طوالة ، عن بهار بن عبد الله العبدي المدني ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ ، قال « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى إنه ليسأله

يقول له ، أي عبدي : أرايت منكراً فلم تنكره ؟ فإذا لقن الله عبداً حجته ، قال : أي رب وثقت بك ، وخفت الناس . وثبت في الصحيح «ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» قالوا : وكيف يذل نفسه يارسول الله ؟ قال «يتحمل من البلاء ما لا يطيق» ، «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» أي من اتصف بهذه الصفات فلإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ، «والله واسع عليهم» أي واسع الفضل ، عليهم بمن يستحق ذلك ممن يجرمه إياه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله ﴿الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام ، وهي عبادة الله له وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله ﴿وهم راکعون﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي في حال ركوعهم ، ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره ، لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى أن بعضهم ذكر في هذا أثراً عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه خاتمه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الربيع بن سليمان المرادي ، حدثنا أيوب بن سويد عن عتبة بن أبي حكيم في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال : هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب ؛ وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا الفضل بن ذكين أبو نعيم الأحول ، حدثنا موسى بن قيس الحضرمي عن سلمة بن كهيل ، قال : تصدق علي بخاتمه وهو راکع ، فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون﴾ . وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا غالب بن عبد الله ، سمعت مجاهداً يقول في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية ؛ نزلت في علي بن أبي طالب ، تصدق وهو راکع . وقال عبد الرزاق : حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية ، نزلت في علي بن أبي طالب ، عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به .

وروى ابن مردويه من طريق سفيان الثوري ، عن أبي سنان ، عن الضحاک ، عن ابن عباس ، قال : كان علي بن أبي طالب قائماً يصلي ، فمر سائل وهو راکع ، فأعطاه خاتمه ، فنزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية ؛ الضحاک لم يلق ابن عباس . وروى ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن السائب الكلبي ، وهو متروك ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد والناس يصلون بين راکع وساجد وقائم وقاعد ، وإذا مسكين يسأل ، فدخل رسول الله ﷺ ، فقال «أعطاك أحد شيئاً؟» قال : نعم . قال «من؟» قال : ذلك الرجل القائم . قال «على أي حال أعطاك؟» قال : وهو راکع ، قال «وذلك علي بن أبي طالب» . قال ؛ فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك وهو يقول ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وهذا إسناد لا يقدر به .

ثم رواه ابن مردويه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه نفسه ، وعمار بن ياسر وأبي رافع ، وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدنا وجهالة رجالها ، ثم روى بإسناده عن ميمون بن مهران ، عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ نزلت في المؤمنين وعلي بن أبي طالب وأهله ، قال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا عبدة عن عبد الملك ، عن أبي جعفر قال : سألت عن هذه الآية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون﴾ قلنا : من الذين آمنوا ؟ قال : الذين آمنوا . قلنا : بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب . قال : علي من الذين آمنوا . وقال أسباط عن السدي : نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين ، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راکع في المسجد ، فأعطاه خاتمه .

وقال علي بن أبي طلحة الوالي ، عن ابن عباس : من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا ؛ رواه ابن جرير . وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف لليهود ؛ ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ كما قال تعالى : ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز . لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح في الدنيا والآخرة ، ومنصور في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الدِّينِ أَوْ تَوَاعَا لِكِتَابٍ مِّن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركيين ، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون : وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة ، المشتملة على كل خير دينوي وأخروي ، يتخذونها هزوا يستهزئون بها ، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً
وأفته من الفهم السقيم

وقوله تعالى : ﴿من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار﴾ من ههنا لبيان الجنس كقولهم ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ وقرأ بعضهم : والكفار بالخفض عطفاً ؛ وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ، ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم﴾ تقديره ﴿ولا الكفار أولياء﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء ، والمراد بالكفار ههنا المشركون ، وكذلك وقع في قراءة ابن مسعود فيها رواه ابن جرير ﴿لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا﴾ . وقوله ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً ، كما قال تعالى : ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن اتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾ .

وقوله : ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ أي وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿اتخذوها﴾ أيضاً ﴿هزواً ولعباً﴾ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدير له حصاص ، أي ضراط ، حتى لا يسمع التأذين فإذا قضي لتأذين ، أقبل ، فإذا ثوب للصلاة أدير ، فإذا قضي التشويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول : اذكر كذا اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك ، فليسجد سجدة قبل السلام ، متفق عليه ؛ وقال الزهري : قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقال أسباط عن السدي في قوله ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ قال : كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي : أشهد أن محمداً رسول الله قال : حرق الكذاب ، فدخلت خادمة ليلة من الليالي بناه وهو نائم ، وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت ، فأحرق هو وأهله ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وذكر محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال ، فأمره أن يؤذن ، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد ، لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يعيظه ؛ وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى ، فخرج عليه النبي ﷺ فقال «قد علمت الذي قلت» ثم ذكر ذلك لهم ؛ فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخيراً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح بن عباد ، حدثنا ابن جريج ، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبي محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان تيباً في حجر أبي محذورة ، قال : قلت لأبي محذورة : يا عم إنني خارج إلى الشام ، وأخشى أن أسأل عن تأديتك ، فأخبرني أن أبا محذورة قال له : نعم ، خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين مقل رسول الله ﷺ من حنين ، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق ، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكبون ، فصرخنا نحكيه ونستهزيء به فسمع رسول الله ﷺ ، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه ؛ فقال رسول الله ﷺ «أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع» ؟ فأشار القوم كلهم إلي وصدقوا ، فأرسل كلهم وحسني ، وقال «قم فأذن» فقامت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرني به ، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ ، فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه ، قال «قل الله أكبر الله أكبر ؛ أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ؛ أشهد

أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ؛ حي على الصلاة حي على الصلاة ، حي على الفلاح حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله» ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ، ثم أمرها على وجهه ، ثم بين ثدييه ، ثم على كبده ، حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سررة أبي محذورة ، ثم قال رسول الله ﷺ «بارك الله فيك وبارك عليك» فقلت : يارسول الله مرني بالتأذين بجمكة ، فقال «قد أمرتك به» ؛ وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة ، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ ؛ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ ؛ وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز ، هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، وأهل السنن الأربعة من طريق عبد الله بن محيريز عن أبي محذورة واسمه سمرة بن معير بن لوذان ، أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة ، وهو مؤذن أهل مكة ، وامتدت أيامه رضي الله عنه وأرضاه .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُكَانِفِينَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسِرُّونَ فِي الْأَيْمِ وَالْعُدُونِ وَأَكْبَهُمُ السُّخْتِ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْآيَةَ وَأَكْبَهُمُ السُّخْتِ لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى : قل يا محمد هؤلاء الذين اتخذوا ديككم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : ﴿هل تقمون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة . فيكون الاستثناء منقطعاً ، كما في قوله تعالى : ﴿وما نقصوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ، وكقوله : ﴿وما نقصوا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ وفي الحديث المتفق عليه «ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فإغناهم الله» . وقوله ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ معطوف على ﴿أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي وآمننا بأن أكثركم فاسقون ، أي خارجون عن الطريق المستقيم .

ثم قال ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله ﴿من لعنة الله﴾ أي أبعد من رحمته ﴿وغضب عليه﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة ، وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف ؛ وقد قال سفيان الثوري ، عن علقمة بن يزيد ، عن المغيرة بن عبد الله ، عن المعرور بن سويد ، عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير : أي مما مسخ الله ؟ فقال «إن الله لم يهلك قوماً ، أو قال لم يمسح قوماً - فيجعلهم نسلاً ولا عبداً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» ؛ وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر ، كلاهما عن مغيرة بن عبد الله الشكري به . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن محمد بن زيد ، عن أبي الأعين المعبدي ، عن أبي الأحوص ، عن ابن مسعود قال : سألتنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير : أي من نسل اليهود ؟ فقال «لا إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسحهم ، فكان لهم نسل ولكن هذا خلق كان ، فلما غضب الله على اليهود فمسحهم جعلهم مثلهم» ؛ ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به . وقال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقي ، حدثنا أحمد بن إسحاق بن صالح ، حدثنا الحسن بن محبوب ، حدثنا عبد العزيز بن المختار عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «الحيات مسخ الجن كما مسخت القردة والخنازير» هذا حديث غريب جداً .

وقوله تعالى : ﴿وعبد الطاغوت﴾ قرئ : ﴿وعبد الطاغوت على أنه فعل ماضٍ ، والطاغوت منصوب به ، أي وجعل

منهم من عبد الطاغوت ؛ وقرىء : وعبد الطاغوت بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت ، أي خدامه وعبيده ؛ وقرىء : وعبد الطاغوت على أنه جمع أجمع عبد وعبيد ، وعبد مثل ثمار وثمر ، حكاها ابن جرير عن الأعمش ؛ وحكى عن بريدة الأسلمي أنه كان يقرؤها وعابد الطاغوت ؛ وعن أبي وابن مسعود : وعبدوا . وحكى ابن جرير عن أبي جعفر القاريء أنه كان يقرؤها ؛ وعبد الطاغوت على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ، ثم استبعد معناها ، والظاهر أنه لا بعد في ذلك ، لأن هذا من باب التعريض بهم ، أي وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه ، وكل هذه المقراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا ، وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر ؟ وهذا قال ﴿أولئك شر مكانا﴾ ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة ، كقوله عز وجل : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾ وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر ؛ وهذا قال ﴿وقد دخلوا﴾ أي عندك يا محمد ﴿بالكفر﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم ، ثم خرجوا وهو كامن فيهم لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ، وهذا قال ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فخصهم به دون غيرهم . وقوله تعالى : ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي عالم بسر أئمتهم وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن أظهروا خلقه خلاف ذلك ، وتزينوا بما ليس فيهم ، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم ، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء . وقوله ﴿وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت﴾ أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل ، لبس ماكانوا يعملون ، أي لبس العمل كان عملهم ، وبس الاعتداء اعتداؤهم .

وقوله تعالى : ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبسوا ماكانوا يصنعون﴾ يعني هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك ، والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط ﴿لبسوا ماكانوا يصنعون﴾ يعني من تركهم ذلك ، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال هؤلاء حين لم ينهوا وهؤلاء حين علموا ، قال : وذلك الأمر كان ، قال : ويعملون ويصنعون واحد ، رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن عطية ، حدثنا قيس عن العلاء بن المسيب ، عن خالد بن دينار ، عن ابن عباس ، قال : مافي القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبسوا ماكانوا يعملون﴾ قال : كذا قرأ ؛ وكذا قال الضحاك : مافي القرآن آية أخوف عندي منها ، إنا لا ننتهي ، رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم ، وذكره يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا محمد بن مسلم بن أبي الوضاح ، حدثنا ثابت أبو سعيد الهمداني قال : لقيته بالري فحدثت عن يحيى بن يعمر قال : خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات ، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن يتزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا . وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شريك عن أبي إسحاق ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعداب» تفرد به أحمد من هذا الوجه . ورواه أبو داود عن مسدد ، عن أبي الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن المنذر بن جرير ، عن جرير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدر أن يغيروا عليه ، فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا» وقد رواه ابن ماجه عن علي بن محمد ، عن وكيع عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عبيد الله بن جرير ، عن أبيه ؛ قال الحافظ المزي : وهكذا رواه شعبة عن أبي إسحاق به .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْسَاتُ بَيْنَهُمُ الْعِدَّةُ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَالًا اللَّهُ وَسِعُونَ

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِقَاتِيهِمْ وَلَادَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آقَمُوا التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه تعالى عن قولهم علواً كبيراً بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهري ، حدثنا حفص بن عمر العدني ، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة قال : قال ابن عباس ﴿مغلولة﴾ أي بخيلة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة﴾ قال : لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة ، ولكن يقولون : بخيل ، يعني أمسك ماعنده بخلا تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي والضحاك ، وقرأ ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ يعني أنه ينهى عن البخل وعن التبذير ، وهو زيادة الانفاق في غير محله ، وعبر عن البخل بقوله ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ وهذا هو الذي أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله . وقد قال عكرمة : إنها نزلت في فنحاص اليهودي ، عليه لعنة الله ، وقد تقدم أنه الذي قال ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه . وقال محمد بن إسحاق : حدثنا محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق ؛ فأنزل الله ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وانتكوه ؛ فقال ﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، كما قال تعالى : ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ الآية .

ثم قال تعالى : ﴿بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي مامن شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع أحوالنا ، كما قال ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ والآيات في هذا كثيرة . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يمينه - قال - : وعرضه على الماء وفي يده الأخرى الفيض يرفع ويخفض . وقال : يقول الله تعالى : ﴿أنفق ، أنفق عليك﴾ أخرجاه في الصحيحين ، البخاري في التوحيد عن علي بن المديني ، ومسلم فيه عن محمد بن رافع ، كلاهما عن عبد الرزاق به .

وقوله تعالى : ﴿وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً ، يزداد به الكافرون الخاسدون لك ولأمك طغياناً ، وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ، وكفراً أي تكديباً ، كما قال تعالى : ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ ، وقال تعالى : ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ ، وقوله تعالى : ﴿والقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم بل العداوة واقعة بين فرقتهم بعضهم في بعض دائماً ، لأنهم لا يجتمعون على حق ، وقد خالفوك وكذبوك ، وقال إبراهيم النخعي : والقينا بينهم العداوة والبغضاء ، قال : الخصومات والجدال في الدين ، رواه ابن أبي حاتم .

وقوله ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ أي كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها ، أبطلها الله ورد كيدهم عليهم ، وحق مكرهم السيء بهم ﴿ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض ، والله لا يحب من هذه صفته ، ثم قال جل وعلا : ﴿ولو أن أهل

الكتاب آمنوا واتقوا ﴿ أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴾ لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴿ أي لأزلنا عنهم المحذور وأنزلناهم المقصود ، ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم﴾ قال ابن عباس وغيره : هو القرآن ، ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمد ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتى لا محالة .

وقوله تعالى : ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء وإنابت لهم من الأرض . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿لأكلوا من فوقهم﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مدراراً ، ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ يعني يخرج من الأرض بركاتها ؛ وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدي ، كما قال تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ الآية ؛ وقال تعالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ الآية ؛ وقال بعضهم معناه ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء . وقال ابن جرير : قال بعضهم : معناه لكانوا في الخير كما يقول القائل : هو في الخير من فرقه إلى قدمه ، ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف .

وقد ذكر ابن أبي حاتم عند قوله ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ فقال : حدثنا علقمة عن صفوان بن عمرو ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نغير ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «يوشك أن يرفع العلم» فقال زياد بن ليبيد : يارَسُولَ الله ، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال «تكلتلك أمك يا ابن ليبيد إن كنت لأراك من أफقه أهل المدينة ، أوليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى ، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ هكذا أورده ابن أبي حاتم معلقاً من أول إسناده مرسلًا في آخره . وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلًا موصولاً ، فقال : حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد ، عن زياد بن ليبيد أنه قال ذكر النبي ﷺ شيئاً ، فقال «وذاك عند ذهاب العلم» قال : قلنا : يا رسول الله ، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ، ونقره أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ فقال «تكلتلك أمك يا ابن أم ليبيد ، إن كنت لأراك من أफقه رجل بالمدينة ، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيها بشيء» هكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع به نحوه ، هذا إسناده صحيح .

وقوله تعالى : ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ كقوله ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ وكقوله عن اتباع عيسى ﴿فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ الآية ؛ فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد ، وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين ، كما في قوله عز وجل : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها﴾ الآية ؛ والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة . وقد قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا أحمد بن يونس الضبي ، حدثنا عاصم بن علي ، حدثنا أبو معشر ، عن يعقوب بن يزيد بن طلحة ، عن زيد بن أسلم ، عن أنس بن مالك ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال «تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة : سبعون منها في النار ، وواحدة في الجنة ؛ وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة : واحدة منها في الجنة ، وإحدى وسبعون منها في النار ؛ وتعلو أمتي على الفرقتين جميعاً واحدة في الجنة ، واثنتان وسبعون في النار» قالوا : من هم يارَسُولَ الله ؟ قال «الجماعات الجماعات» . قال يعقوب بن زيد : كان علي بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآناً ، قال ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ إلى قوله تعالى : ﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ وتلا أيضاً قوله تعالى : ﴿ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ يعني أمة محمد ﷺ وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه وهذا السياق ، وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروي من طرق عديدة ، وقد ذكرناه في موضع آخر ، والله الحمد والمنة .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة ، وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم القيام ؛ قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن إسماعيل ، عن الشعبي عن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : من حدثك ان محمداً ﷺ كنتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول ﴿يأياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية ؛ هكذا رواه هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه في مواضع من صحيحه مطولاً ؛ وكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان ، والترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننها من طرق عن عامر الشعبي ، عن مسروق بن الأجدع ، عنها رضي الله عنها ؛ وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو كان محمد ﷺ كاتمًا شيئاً من القرآن لكنتم هذه الآية ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادي : حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد عن هارون بن عنترة ، عن أبيه قال : كنت عند ابن عباس ، فجاء رجل فقال له : إن ناساً يأتونا فيخبرونا ان عندكم شيئاً لم يده رسول الله ﷺ للناس ؛ فقال ابن عباس : ألم تعلم أن الله تعالى قال : ﴿يأياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ والله ما ورننا رسول الله ﷺ سواداً في بيضاء ، وهذا إسناده جيد ؛ وهكذا في صحيح البخاري من رواية أبي جحيفة وهب بن عبد الله السوائي قال : قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن ؟ فقال : لا والذي فلق الحية وبرأ النسمة ، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة ، قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل ، وفكاك الأسير ، وإن لا يقتل مسلم بكافر .

وقال البخاري : قال الزهري : من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلىنا التسليم ، وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة . واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع ، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً ؛ كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ «يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول «اللهم هل بلغت ؟» قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا فضيل يعني ابن غزوان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، «يا أيها الناس أي يوم هذا ؟ قالوا : يوم حرام . قال «أي بلد هذا ؟» قالوا : بلد حرام . قال «أي شهر هذا ؟» قالوا : شهر حرام . قال : «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمه يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا» ثم أعادها مراراً ، ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال «اللهم هل بلغت ؟» مراراً . قال : يقول ابن عباس : والله لو صية إلى ربه عز وجل ، ثم قال «وإلا فليلغ الشاهد الغائب : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وقد روى البخاري عن علي بن المديني ، عن يحيى بن سعيد ، عن فضيل بن غزوان به نحوه .

وقوله تعالى : ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به ، فما بلغت رسالته ، أي وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني إن كنتم آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان عن رجل ، عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿يأياها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قال : يارب ، كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي ؟ فنزلت ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ ورواه ابن جرير من طريق سفيان وهو الثوري به .

وقوله تعالى : ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي بلغ أنت رسالتي ، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك ؛ وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يجرس ؛ كما قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا يحيى قال : سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث أن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : فقلت : ماشأنك يا رسول الله ؟ قال «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يجرسني الليلة» قالت : فيينا أنا على ذلك ، إذ سمعت صوت السلاح ؛ فقال «من هذا ؟» فقال : أنا سعيد بن مالك ؛ فقال : ماجاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله . قالت : فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه ، أخرجاه في الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري به . وفي لفظ : سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مقدمه المدينة يعني على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضي الله عنها ، وكان ذلك في سنة ثنتين منها .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصري ، نزيل مصر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الحارث بن عبيد يعني أبا قدامة عن الجريري ، عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يجرس حتى

نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعصمكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ قالت : فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله عز وجل» وهكذا رواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن نصر بن علي الجهضمي ، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم بن إبراهيم به ؛ ثم قال : وهذا حديث غريب ، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم في مستدركه من طريق مسلم بن إبراهيم به ؛ ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه ؛ وكذا رواه سعيد بن منصور عن الحارث بن عبيد أبي قدامة الأيادي ، عن الجريري ، عن عبد الله بن شقيق ، عن عائشة به ؛ ثم قال الترمذي : وقد روى بعضهم هذا عن الجريري عن ابن شقيق ، قال : كان النبي ﷺ يجرس حتى نزلت هذه الآية ، ولم يذكر عائشة . قلت : هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن علي ، وابن مردويه من طريق وهيب ، كلاهما عن الجريري عن عبد الله بن شقيق مرسلًا ، وقد روي هذا مرسلًا عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظي ، رواهما ابن جرير ، والربيع بن أنس ، رواه ابن مردويه ؛ ثم قال : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن رشدين المصري ، حدثنا خالد بن عبد السلام الصديقي ، حدثنا الفضل بن المختار عن عبد الله بن موهب ، عن عصمة بن مالك الخطمي قال : كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت ﴿وَاللَّهُ يَعصمكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ فترك الحرس ، حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد أبو نصر الكاتب البغدادي ، حدثنا كردوس بن محمد الواسطي ، حدثنا يعلى بن عبد الرحمن عن فضيل بن مرزوق عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يجرسه ؛ فلما نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعصمكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس . حدثنا علي بن أبي حامد المدني ، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد ، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعري ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار ، حدثنا أبي قال : سمعت أبا الزبير المكي يحدث عن جابر بن عبد الله ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت ﴿وَاللَّهُ يَعصمكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ فذهب ليبعث معه ، فقال «يا عم إن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث» وهذا حديث غريب وفيه نكارة ؛ فإن هذه الآية مدنية ، وهذا الحديث يقتضي أنها مكية ؛ ثم قال : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الحميد الجماني عن النضر ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله ﷺ يجرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجلاً من بني هاشم يجرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ قال : فأراد عمه أن يرسل معه من يجرسه ؛ فقال «إن الله قد عصمني من الجن والإنس» ؛ ورواه الطبراني عن يعقوب بن غيلان العماني ، عن أبي كريب به . وهذا أيضاً حديث غريب ، والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ما نزل بها ، والله أعلم ؛ ومن عصمة الله لرسوله . حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبغضة ، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً ، بما يخلق الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة ، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب ، نال منه المشركون أذى يسيراً ، ثم قبض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة ، فلما صار إليها ، منعوه من الأحمر والأسود ، وكلها هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ، ورد كيده عليه ، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المودتين دواء لذلك الداء ، ولئلا يهتدوا في ذراع تلك الشاة بخير ، أعلمه الله به وحماه منه ، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها . فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة .

قل أبو جعفر بن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره ، قالوا : كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقبل تحتها ؛ فأتاه أعرابي فاختط سيفه ، ثم قال : من يمنعك مني ؟ فقال «الله عز وجل» ؛ فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه ، وضرب برأسه الشجرة حتى انثرت دماغه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَاللَّهُ يَعصمكُم مِّنَ النَّاسِ﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا موسى بن عبيدة ، حدثني زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري . قال : لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار ، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل ، فبينما هو جالس على رأس بشر قد دلى رجله ، فقال الحارث من بني النجار : لأقتلن محمداً ؛ فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له : أعطني سيفك ، فإذا أعطانيه ، قتلت به . قال : فأتاه . فقال : يا محمد ، أعطني سيفك أشيمة ، فأعطاه إياه ، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده ؛ فقال رسول الله ﷺ «حال الله بينك وبين ما تريد» ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل

إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴿ وهذا حديث غريب من هذا الوجه ؛ وقصة غورث بن الحارث مشهورة في الصحيح .

وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أبو عمرو بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب ، حدثنا آدم ، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، قال : كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها ، فينزل تحتها ؛ فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل فأخذه ، فقال : يا محمد من يمنعك مني ؟ فقال رسول الله ﷺ «الله يمنعني منك ضع السيف» فوضعه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن المؤمل بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت أبا إسرائيل ، يعني الجشمي ، سمعت جعدة هو ابن خالد بن الصمة الجشمي رضي الله عنه ، قال : سمعت النبي ﷺ ورأى رجلا سمينا ، فجعل النبي ﷺ يومئذ إلى بطنه بيده ويقول «لو كان هذا في غير هذا ، لكان خيرا لك» قال : وأتى النبي ﷺ برجل ، فقيل : هذا أراد أن يقتلك ؛ فقال له النبي ﷺ «لم ترع ولو أردت ذلك لم يسلمك الله علي» . وقوله ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، كما قال تعالى : ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ ، وقال ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِيْدَتٌ كَثِيْرًا
مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ طَعْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِيْنَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِيْنَ هَادُوا
وَالصَّٰبِغِيْنَ وَالنَّصْرِيْنَ مِنْ ءَٰمَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : قل يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴿ أي من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، وما فيها الإيمان بمحمد والأمر باتباعه ﷺ والإيمان ببعثه ، والافتداء بشريعته ؛ ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد : في قوله ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ : يعني القرآن العظيم . وقوله ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ تقدم تفسيره ، ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا يهينك ذلك منهم . ثم قال ﴿إن الذين آمنوا﴾ وهم المسلمون ، ﴿والذين هادوا﴾ وهم حملة التوراة ، ﴿والصابغون﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع ، والصابغون طائفة من النصراري والمجوس ليس لهم دين ، قاله مجاهد ، وعنه : من اليهود والمجوس . وقال سعيد بن جبیر : من اليهود والنصارى . وعن الحسن والحكم : إنهم كالمجوس . وقال قتادة : هم قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى غير القبلة ، ويقرءون الزبور .

وقال وهب بن منبه : هم قوم يعرفون الله وحده ، وليست لهم شريعة يعملون بها ، ولم يحدثوا كفرا . وقال ابن وهب : أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه ، قال : الصابغون هم قوم بما يلي العراق ، وهم بكوثي ، أو هم يؤمنون بالنبيين كلهم ، ويصومون كل سنة ثلاثين يوما ، ويصلون كل يوم خمس صلوات . وقيل غير ذلك ؛ وأما النصراري فمعروفون وهم حملة الإنجيل ، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر وهو الميعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت عملا صالحا ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقليين ؛ فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيها يستقبلونه ، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ، ولا هم يجزئون ، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيْقًا
كَذَّبُوْا وَفَرِيْقًا يَقْتُلُوْنَ ﴿٧١﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ أَتَّكُوْنَ فَتَنَةً فَمَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا
وَصَمَّوْا كَثِيْرًا مِّنْهُمْ وَاللّٰهُ بَصِيْرٌ بِمَا يَعْمَلُوْنَ ﴿٧٢﴾

يذكر أنه تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ورسوله ، فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم ، وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا ، فترتب ، وهو أنهم غموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يبتدون إليه ؛ ثم تاب الله عليهم ، أي مما كانوا فيه ، ﴿ثم عموا وصموا﴾ أي بعد ذلك ، ﴿كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ أي مطلع عليهم وعليهم بمن يستحق الهداية عن يستحق الغواية منهم .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۗ إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ إِيَّاهُ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِالطَّعَامِ أَنْظَرُ كَيْفَ بُيِّنَتْ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرَأْفِ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله ، تعالى الله عن قوهم وتزده وتقدس علواً كبيراً ؛ هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال : إني عبد الله ، ولم يقل : إني أنا الله ولا ابن الله ، بل قال ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ إلى أن قال ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمراً بهم بعبادة الله ربه وربهم ، وحده لا شريك له ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ أي فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى : ﴿إن الله لا يغير أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾ . وقال تعالى : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ . وفي الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس : إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة . وفي لفظ : مؤمنة . وتقدم في أول سورة النساء عند قوله : إن الله لا يغير أن يشرك به ، حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة : الدواوين ثلاثة ، فذكر منهم ديواناً لا يغيره الله ، وهو الشرك بالله . قال الله تعالى : ﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ ، والحديث في مسند أحمد ، ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ أي وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه .

وقوله ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن الهسنجاني ، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبي مريم ، حدثنا الفضل ، حدثني أبو صخر في قول الله تعالى : ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ قال : هو قول اليهود عزيزاً ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله ؛ فجعلوا الله ثالث ثلاثة ؛ وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى ، والصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد ؛ ثم اختلفوا في ذلك فقيل : المراد بذلك كفرهم في قوهم بالأقانيم الثلاثة : وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ، تعالى الله عن قوهم علواً كبيراً ، قال ابن جرير وغيره ؛ والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه ، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاثة كافرة .

وقال السدي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ؛ فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار . قال السدي : وهي كقوله تعالى في آخر السورة ﴿وإذ قال الله يعيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك﴾ الآية ؛ وهذا القول هو الأظهر - والله أعلم - قال الله تعالى : ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ أي ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وإن لم ينتهوا

عما يقولون ﴿ أي من هذا الافتراء والكذب ﴾ ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿ أي في الآخرة من الأغلال والنكال ؛ ثم قال ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه . وقوله تعالى : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ، ورسول من رسله الكرام ، كما قال ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبيبي إسرائيل ﴾ . وقوله ﴿ وأمه صديقة ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره عن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ، ونبوة أم موسى ، ونبوة أم عيسى ، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم ، ويقول ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ وهذا معنى النبوة ؛ والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال ؛ قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ كأننا ياكلان الطعام ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به ، وإلى خروجه منها ، فهما عبدان كسائر الناس ، وليسا بالهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة ، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . ثم قال تعالى : ﴿ انظر كيف نبين لهم الآيات ﴾ أي نوضحها ونظهرها ﴿ ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجللاء أين يذهبون ، وبأي قول يتمسكون ، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا هَلْ
 أَلِكْتَبِ لَا تَعْلَمُونَ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا
 وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى متكرراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية ، فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على دفع ضرر عنكم ولا إيصال نفع إليكم ، ﴿ والله هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ؟ ثم قال ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية ، كما صنعتهم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم ، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ، ﴿ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه ، عن الربيع بن أنس قال : وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زماناً ، فأتاه الشيطان فقال : إنما تركت أثراً أو أمراً قد عمل قبلك ، فلا تحمد عليه ، ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك ، وادع إليه واجبر الناس عليه ، ففعل ثم اذكر بعد فعله زماناً ، فأراد أن يتوب منه ، فخلع سلطانه وملكه ، وأراد أن يتعبد ، فلبث في عبادته أياماً ، فأتى فقيل له : لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتوب عليك ، ولكن ضل فلان وفلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة ؛ فكيف لك جهادهم فلا توبة لك أبداً ؛ ففهم سمعنا وفي أشباهه هذه الآية ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ .

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
 يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَبَّأُونَ عَن مُّكْرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى
 كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ

هُم خَالِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا

مِنْهُمْ فَالْسِفُونَ ﴿٨٩﴾

يجر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه . قال العوفي ، عن ابن عباس : لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان ، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم ؛ فقال تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَّاهُونَ عَنْ مَنكَرِ فَعْلَاهُمْ لِبِسِّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبهوا ؛ فقال : لبس ما كانوا يفعلون . وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يزيد ، حدثنا شريك بن عبد الله عن علي بن بزيمة ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي ، نهام علماءهم فلم ينتهوا : فجالسوهم في مجالسهم ﴾ قال يزيد : وأحسبه قال ﴿ في أسواقهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم بعضاً ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكثراً ، فجلس فقال « لا والذي نفسي بيده حتى تآطروهم على الحق أطراً » .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي ، حدثنا يونس بن راشد عن علي بن بزيمة ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقبعده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال - : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ﴾ إلى قوله ﴿ فاسقون ﴾ - ثم قال - : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو تقصرنه على الحق قصراً ؛ وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق علي بن بزيمة به ؛ وقال الترمذي : حسن غريب ؛ ثم رواه هو وابن ماجه عن بندار ، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، عن علي بن بزيمة ، عن أبي عبيدة مرسلًا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، وهارون بن إسحاق الهمداني ، قالا : حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن العلاء بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو بن مرة ، عن سالم الأفتس ، عن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً ، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه ، أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ﴾ وفي حديث هارون « وشريبه » ، ثم اتفقا في المتن « فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ؛ ثم قال رسول الله ﷺ ﴿ والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسيء ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعنكم كما لعنهم ﴾ والسياق لأبي سعيد ؛ وكذا قال في رواية هذا الحديث . وقد رواه أبو داود أيضاً عن خلف بن هشام ، عن أبي شهاب الخياط ، عن العلاء بن المسيب ، عن عمرو بن مرة ، عن سالم وهو ابن عجلان الأفتس ، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ بنحوه ، ثم قال أبو داود : كذا رواه خالد بن العلاء ، عن عمرو بن مرة به ؛ ورواه المحاربي عن العلاء بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو بن مرة ، عن سالم الأفتس ، عن أبي عبيدة عن عبد الله . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزني : وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطي عن العلاء بن المسيب ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ، عن أبي موسى .

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً ، ولنذكر منها ما يناسب هذا المقام ، قد تقدم حديث جابر عند قوله ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار ﴾ وسيأتي عند قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني ، فقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان الهاشمي ، أنبأنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرني عمرو بن أبي عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلي ، عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال « والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ؛ ورواه الترمذي عن علي بن حجر عن إسماعيل بن جعفر به ؛ وقال : هذا حديث حسن . وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا معاوية بن هشام عن هشام بن سعد ، عن عمرو بن عثمان ، عن عاصم بن عمر بن عثمان ، عن عروة ، عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ

يقول «مروا بالمعروف، وانها عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم» تفرد به ؛ وعاصم هذا مجهول . وفي الصحيح من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه ، عن أبي سعيد ، وعن قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسنه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا سيف هو ابن أبي سليمان ، سمعت عدي بن عدي الكندي يحدث عن مجاهد قال : حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعني عدي بن عميرة رضي الله عنه ، يقول : سمعت النبي ﷺ يقول «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرأيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك ، عذب الله الخاصة والعامة» ؛ ثم رواه أحمد عن أحمد بن الحجاج ، عن عبد الله بن المبارك ، عن سيف بن أبي سليمان ، عن عيسى بن عدي الكندي ، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ، فذكره ، هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين . قال أبو داود : حدثنا أبو العلاء ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا المغيرة بن زياد الموصلي عن عدي بن عدي ، عن العرس يعني ابن عميرة ، عن النبي ﷺ قال «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها ، - وقال مرة فأنكرها - كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها» تفرد به أبو داود ، ثم رواه عن أحمد بن يونس ، عن أبي شهاب ، عن مغيرة بن زياد ، عن عدي بن عدي مرسلًا . وقال أبو داود : حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر ، قالوا : حدثنا شعبة وهذا لفظه ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البحرني قال : أخبرني من سمع النبي ﷺ ، وقال سليمان ، حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال «لئن يهلك الناس حتى يعددوا أو يعذروا من أنفسهم» . وقال ابن ماجه : حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا علي بن زيد بن جدعان ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيباً ، فكان فيما قال «ألا لا يمتنع رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه» . قال : فبكى أبو سعيد ، وقال : قد والله رأينا أشياء فهينا .

وفي حديث إسرائيل عن عطية عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» ، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ؛ وقال الترمذي : حسن غريب من هذا الوجه . وقال ابن ماجه : حدثنا راشد بن سعيد الرملي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا حماد بن سلمة عن أبي غالب ، عن أبي أمامة : قال : عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجمره الأولى ، فقال : يا رسول الله ، أي الجهاد أفضل ؟ فسكت عنه ، فلما رمى الجمره الثانية سأله فسكت عنه ، فلما رمى جمره العقبة ووضع رجله في الغرزليركب قال «أين السائل ؟» قال : أنا يا رسول الله . قال «كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر» تفرد به . وقال ابن ماجه : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البحرني عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يحقر أحدكم نفسه» قالوا يا رسول الله : كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال «يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه ، فيقول الله له يوم القيامة : مامنك أن تقول في كذا كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ؛ فيقول : فأياي كنت أحق أن تحشى» تفرد به ؛ وقال أيضاً : حدثنا علي بن محمد ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طوالة ، حدثنا نهار العبدي أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعتك إذا رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإذا لقن الله عبداً حجته قال : يارب رجوتك وفرقت الناس» تفرد به أيضاً ابن ماجه ، وإسناده لا بأس به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عمرو بن عاصم عن حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن الحسن ، عن جندب ، عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال «لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه» قيل : وكيف يذل نفسه ؟ قال «يتعرض من البلاء لما لا يطيق» ، وكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً عن محمد بن بشار ، عن عمرو بن عاصم به ؛ وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وقال ابن ماجه : حدثنا العباس بن الوليد الدمشقي ، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعي ، حدثنا الهيثم بن حميد ؛ حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرعيبي عن مكحول ، عن أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله ، متى يترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؟ قال «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم» قلنا : يا رسول الله ، وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال «الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم» قال زيد : تفسير معنى قول النبي ﷺ والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفساق ، تفرد به ابن ماجه ، وسيأتي في حديث أبي ثعلبة عند قوله ﴿ لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ شاهد لهذا ، إن شاء الله تعالى وبه الثقة . وقوله تعالى ﴿ لبئس ما قدمت

لهم أنفسهم ﴿ يعني بذلك موالاتهم للكافرين ، وتركهم موالات المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وسخط الله عليهم سخط مستمراً إلى يوم معادهم ، ولهذا قال ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ، ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ في العذاب خالدون ﴾ يعني يوم القيامة . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا مسلم بن علي عن الأعمش بإسناد ذكره ، قال «يامعشر المسلمين ، إياكم والزنا ، فإن فيه ست خصال : ثلاثاً في الدنيا ، وثلاثاً في الآخرة ؛ فأما التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ؛ وأما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط الرب ، وسوء الحساب ، والخلود في النار» ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾ هكذا ذكره ابن أبي حاتم . وقد رواه ابن مردويه من طريق هشام بن عمار عن مسلم ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة ، عن النبي ﷺ فذكره ؛ وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عفير عن مسلم ، عن أبي عبد الرحمن الكوفي ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة ، عن النبي ﷺ فذكر مثله ، وهذا حديث ضعيف على كل حال ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ أي لو أسنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالات الكافرين في الباطن ، ومعادات المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ، ﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله ، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْتُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَسْبِرُونَ رُءُوسَهُمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨١﴾
 وَإِذْ أَسْمِعُ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَعَاعِرٍ وَمَا هُمْ بِأَلْفَاظٍ يَأْكُمُونَ
 الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنبَهُمُ
 اللَّهُ يَمَا قَالُوا اجْتَلَيْتُم بِتَجْرِئٍ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحيشة القرآن ، بكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وهذا القول فيه نظر ، لأن هذه الآية مدنية ، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة . وقال سعيد بن جبيرة والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسيئروا كلامه ويروا صفاته ، فلما رآه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه . قال السدي : فهاجر النجاشي فمات بالطريق . وهذا من أفراد السدي ، فإن النجاشي مات وهو ملك الحيشة ، وصل عليه النبي ﷺ يوم مات ، وأخبر به أصحابه ، وأخبر أنه مات بأرض الحيشة . ثم اختلف في عدة هذا الوفد ، فقيل : اثنا عشر : سبعة قساوسة وخمسة رهابين . وقيل : بالعكس . وقيل : خمسون . وقيل : بضع وستون . وقيل : سبعون رجلاً ، فإله أعلم وقال عطاء بن أبي رباح : هم قوم من أهل الحيشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحيشة من المسلمين وقال قتادة هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم ، فلما رأوا المسلمين ، وسمعوا القرآن ، أسلموا ولم يتعلموا ، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة ، سواء كانوا من الحيشة أو غيرها .

فقوله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق وغضب للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . قال الحافظ أبو بكر بن مردويه عند تفسير هذه الآية : حدثنا أحمد بن محمد بن السري ، حدثنا محمد بن علي بن حبيب الرقي ، حدثنا علي بن سعيد العلاف ، حدثنا أبو النصر عن الأشجعي ، عن سفيان ، عن يحيى بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ماخلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله» ؛ ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق العسكري ، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي ، حدثنا فرج بن عبيد ، حدثنا عباد بن العوام عن يحيى بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «ماخلا يهودي بمسلم إلا حدث نفسه بقتله» ، وهذا حديث غريب جداً .

وقوله تعالى : ﴿ولتجدن أقرهيم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال تعالى ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورحمة ورحمة﴾ وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعاً في ملتهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، وأحدهم قسيس وقس أيضاً ، وقد يجمع على قسوس ، والرهبان جمع راهب ، وهو العابد ، مشتق من الرهبة ، وهي الخوف ، كراكب وركبان ، وفارس وفرسان . قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهابين ، مثل قربان وقربانين ، وجرذان وجراذين ، وقد يجمع على رهابنة ، ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر :

لو عاينت رهبان دبر في القلل
لأنحدر الرهبان بمشي ونزل

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا بشر بن آدم ، حدثنا نصير بن أبي الأشعث ، حدثني الصلت الدهان عن جاثمة بن رثاب ، قال : سألت سلمان عن قول الله تعالى ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾ فقال : دع القسيسين في البيع والحرب ، أقرأني رسول الله ﷺ ﴿ذلك بأن منهم صديقين ورهباناً﴾ ، وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني عن نصير بن زياد الطائي ، عن صلت الدهان ، عن جاثمة بن رثاب ، عن سلمان به . قال ابن أبي حاتم : ذكره أبي ، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الخاني ، حدثنا نصير بن زياد الطائي ، حدثنا صلت الدهان عن جاثمة بن رثاب قال : سمعت سلمان وسئل عن قوله ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾ فقال : هم الرهبان الذين هم في الصوامع والحرب فدعوهم فيها ، قال سلمان : وقرأت على النبي ﷺ ﴿ذلك بأن منهم قسيسين﴾ فأقرأني ﴿ذلك بأن منهم صديقين ورهباناً﴾ فقوله ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف ، فقال ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يقولون ربنا أئنا فاكنتنا مع الشاهدين﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به .

وقد روى النسائي عن عمرو بن علي الفلاس ، عن عمر بن علي بن مقدم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا أئنا فاكنتنا مع الشاهدين﴾ وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طريق سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قوله ﴿فاكنتنا مع الشاهدين﴾ أي مع محمد ﷺ وأمه هم الشاهدون ، يشهدون لنبينهم ﷺ أنه قد بلغ ، وللرسول أنهم قد بلغوا ، ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وقال الطبراني ، حدثنا أبو شبيب عبد الله بن عبد الرحمن بن واقد ، حدثنا أبي ، حدثنا العباس بن الفضل عن عبد الجبار بن نافع الضبي ، عن قتادة ، وجعفر بن إياس عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع﴾ قال : إنهم كانوا كرايين يعني فلاحين ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ ﴿لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم اتقلتم إلى دينكم﴾ فقالوا : لن نتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من قولهم ﴿ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ وهذا الصنف من النصاري هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿الذين أتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا أئنا آمننا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾ إلى قوله ﴿لا نبتغي الجاهلين﴾ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿فأنابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي فجزاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾ أي في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان ، ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ، ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي هم أهلها والدخلون فيها .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحْزَنُوا طَبِئَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْأَدُونَ ءَاتَىٰ اللَّهُ لِيُحِبَّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَكُلُّوْا مِمَّا

رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ ، قالوا : نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك ، فقالوا : نعم ؛ فقال النبي ﷺ «لكني أصوم وأفطر ، وأصلي ، وأنام ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بستي فهو مني ، ومن لم يأخذ بستي فليس مني» رواه ابن أبي حاتم ، وروى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس نحو ذلك ؛ وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا أكل اللحم ؛ وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ؛ وقال بعضهم : لا أنام على فراش ؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكني أصوم وأفطر وأنا وأقوم وأكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سستي فليس مني» .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري ، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ، عن عثمان يعني ابن سعيد ، أخبرني عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت إلى النساء ، وإني حرمت علي اللحم ؛ فنزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» . وكذا رواه الترمذي وابن جرير جميعاً عن عمرو بن علي الفلاس عن أبي عاصم النبيل به . وقال ؛ حسن غريب . وقد روي من وجه آخر مسلاً ، وروي موقوفاً على ابن عباس ، فأنه أعلم . وقال سفيان الثوري ووكيع عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء ، فقلنا : ألا نستخصي ؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك ، ورخص لنا أن نتكح المرأة بالتوب إلى أجل ، ثم قرأ عبد الله ﷺ «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» الآية ، أخرجاه من حديث إسماعيل ، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة ، والله أعلم .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن همام بن الحارث ، عن عمرو بن شرحبيل ، قال : جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال : إني حرمت فراشي ؛ فتلا هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» الآية . وقال الثوري ، عن منصور ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، قال : كنا عند عبد الله بن مسعود ، فجيء بضرع فتحنى رجل ، فقال له عبد الله : ادن ؛ فقال : إني حرمت أن أكله ؛ فقال عبد الله : إدن فاطعمه وكفر عن يمينك ، وتلا هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» الآية ؛ رواه ابن أبي حاتم ، وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه من طريق إسحاق بن راهويه ، عن جرير ، عن منصور به ؛ ثم قال : على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله ، وهو عند النبي ﷺ ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له ، فقال لامرأته حبست ضيفي من أجلي هو علي حرام ، فقالت امرأته : هو علي حرام . وقال الضيف : هو علي حرام ، فلما رأى ذلك وضع يده وقال : كلوا باسم الله ، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم ، ثم أنزل الله «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» وهذا أثر منقطع .

وفي صحيح البخاري في قصة الصديق مع أضيافه شبه هذا ، وفيه وفي هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً ، ولقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم» ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء ، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين ، وكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه لإتزامه بما التزمه ، كما أتى بذلك ابن عباس ، وكما في قوله تعالى «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبغني مرضات أزواجك والله غفور رحيم» ، ثم قال «قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم» الآية ؛ وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم ، عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير ، والله أعلم .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، عن مجاهد قال : أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ، ويخصوا أنفسهم ، ويلبسوا المسوح ؛ فنزلت هذه الآية إلى قوله «واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون» . قال ابن جريج ، عن عكرمة : أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالم مولى أبي حذيفة في أصحابه بتبتلوا ، فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس ، إلا ما يؤكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل ، وهموا بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام

الليل ، وصيام النهار ؛ فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول لا تسبوا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاص ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال ﴿إِنَّ لَأَنْفُسِكُمْ حَقًّا ، وَإِنَّ لَأَعْيُنِكُمْ حَقًّا ، صُومُوا وَأَطْرُوا ، وَصَلُّوا وَنَامُوا ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا﴾ فقالوا : اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت . وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله ، ولها شاهد في الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك ، والله الحمد والمنة . وقال أسباط عن السدي في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ ، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب وعثمان بن مظعون : ما حقتنا إن لم نحدث عملاً ، فإن النصراري قد حرموا على أنفسهم فحرموا نحرهم ، فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء فكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه ، فأتت امرأته عائشة رضي الله عنها وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون ، لا تمتشطين ولا تنظيبن ؟ فقالت : وكيف أمتشط وأنظيب وما وقع علي زوجي ، وما رفع عني ثوباً منذ كذا وكذا . قال : فجعلن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن ؛ فقال «ما يضحكن ؟» قالت : يارسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها . فقالت : ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال «مالك يا عثمان؟» قال : إني تركته لله لكي أتخلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه ، فقال رسول الله ﷺ «أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك» . فقال : يارسول الله إني صائم . فقال «أفطر» فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلحت وتنظيبت ، فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حولاء ؟ فقالت : إنه أتاه أمس .

وقال رسول الله ﷺ «ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والنوم ، ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عني فليس مني» فنزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يقول لعثمان : لا تحب نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ ، رواه ابن جرير . وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف ، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الآية ؛ وقال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا انْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط ؛ ولهذا قال ﴿لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثم قال ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واركعوا مخالفته وعصيانه ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ
أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ مِنْ أَهْلِكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ
إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يبين الله لكم آيته لعلكم تتشكرون ﴿٨٩﴾

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا ، والله الحمد والمنة ، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله . وهذا مذهب الشافعي . وقيل هو في الهزل . وقيل : في المعصية . وقيل : على غلبة الظن ، وهو قول أبي حنيفة وأحمد . وقيل : في النسيان . وقيل : هو الحلف على ترك المأكول والمشرب والملبس ونحو ذلك ؛ واستدلوا بقوله ﴿وَلَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما صممت عليه منها وقصدتموها ، فكفارته إطعام عشرة مساكين يعني معاوية من الفقهاء ومن لا يجيد ما يكفي .

وقوله ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة : أي من أعدل ما تطعمون أهليكم . وقال عطاء الخراساني : من أمثل ما تطعمون أهليكم . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج ، عن أبي إسحاق السبيعي ، عن الحارث ، عن علي قال : خبز ولبن ، وخبز وسمن . وقال ابن أبي حاتم : أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة ، حدثنا سفيان بن عيينة عن سليمان يعني ابن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس قال : كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون ، وبعضهم قوتاً فيه سعة ، فقال الله تعالى : ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي من الخبز والزيت ؛ وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل عن جابر ، عن عامر ، عن ابن عباس ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال : من عسرهم ويسرهم وحدثنا عبد الرحمن بن خلف الحمصي ، حدثنا محمد بن شعيب يعني ابن شاور ، وحدثنا شبان بن عبد الرحمن التميمي عن ليث بن أبي سليم عن عاصم الأحول ، عن رجل يقال له عبد الرحمن التميمي ، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ ، قال : الخبز واللحم ، والخبز والسمن ، والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والخل .

وحدثنا علي بن حرب الموصلي ، حدثنا أبو معاوية عن عاصم ، عن ابن سيرين ، عن ابن عمر في قوله ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال : الخبز والسمن ، والخبز واللبن ، والخبز والزيت ، والخبز والتمر ، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم ، ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع ، كلاهما عن أبي معاوية ، ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود وشريح القاضي ومحمد بن سيرين والحسن والضحاك وأبي رزين ، أنهم قالوا نحو ذلك ، وحكاها ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ أي في القلة والكثرة ، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم ؛ فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج ، عن حصين الحارثي ، عن الشعبي ، عن الحارث ، عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ قال : يغذيهم ويعشيهم . وقال الحسن ومحمد بن سيرين : يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة خبزاً ولحماً ؛ زاد الحسن : فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً ، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخبلاً ، حتى يشبعوا . وقال آخرون : يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما ؛ فهذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان . وقال أبو حنيفة : نصف صاع بر وصاع مما عده .

وقد قال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفى ، حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف ، حدثنا محمد بن معاوية ، حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سخيرة بن أخي عائشة لأمه ، حدثنا عمر بن يعلى عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس ، قال : كُفِّرَ رسول الله ﷺ بصاع من تمر ، وأمر الناس به ، ومن لم يجد فنصف صاع من بر . ورواه ابن ماجه عن العباس بن يزيد ، عن زياد بن عبد الله بالبكايتي ، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى ، عن المنهال بن عمرو ، لا يصح هذا الحديث لحال عمر بن عبد الله هذا ، فإنه يجمع على ضعفه ، وذكروا أنه كان يشرب الخمر . وقال الدارقطني : متروك . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن إدريس عن داود يعني ابن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنه قال : مد من بر يعني لكل مسكين ومعه إدامه ؛ ثم قال : وروي عن ابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء وعكرمة وأبي الشعثاء والقاسم وسالم وأبي سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار والحسن ومحمد بن سيرين والزهري ، نحو ذلك . وقال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأمد .

واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مئزره عشرة صاعاً ، لكل واحد منهم مد . وقد ورد حديث آخر صريح في ذلك ؛ فقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا أحمد بن علي بن الحسن المقرئ ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج ، حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا النضر بن زرارَةَ الكوفي عن عبد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مداً من حنطة بالمد الأول ، اسناده ضعيف لحال النضر بن زرارَةَ بن عبد الأكرم الذهلي الكوفي نزيل بلخ ، قال فيه أبو حاتم الرازي : هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد ، وذكره ابن حبان في الثقات . وقال : روى عنه قتيبة بن سعيد أشياء مستقيمة ، فإله أعلم ؛ ثم إن شيخه العمري ضعيف أيضاً . وقال أحمد بن حنبل : الواجب مد من بر أو مدان من غيره ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿أو كسوتم﴾ قال الشافعي رحمه الله : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة

من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة ، أجزاءه ذلك ؛ واختلف أصحابه في القلنسوة : هل تجزئ أم لا ؟ على وجهين ، فمنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجاً بما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمار بن خالد الواسطي : قالوا : حدثنا القاسم بن مالك عن محمد بن الزبير ، عن أبيه ، قال : سألت عمران بن الحصين عن قوله ﴿أَوْ كَسَوْتُمْ﴾ قال : لو أن وفداً قدموا على أميركم فكساهم قلنسوة ، قلت : قد كسوا ؛ ولكن هذا إسناد ضعيف لحال محمد بن الزبير هذا ، والله أعلم . وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفرايني : في الخف وجهين أيضاً ، والصحيح عدم الإجزاء وقال مالك وأحمد بن حنبل : لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه ، إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسه ، والله أعلم .

وقال العوفي عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت . وقال ليث عن مجاهد : يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلا التبان . وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك . ثوب ثوب . وعن إبراهيم النخعي أيضاً : ثوب جامع كالمحففة والرداء ، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً ، وقال الأنصاري عن أشعث عن ابن سيرين : والحسن ثوبان ثوبان . وقال الثوري عن داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب : عمامة يلف بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها . وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا ابن المبارك عن عاصم الأحول ، عن ابن سيرين ، عن أبي موسى أنه حلف على يمين ، فكسا ثوبين من معقدة البحرين . وقال ابن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن المولى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن مقاتل بن سليمان ، عن أبي عثمان ، عن أبي عياض ، عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿أَوْ كَسَوْتُمْ﴾ قال «عباءة لكل مسكين» ، حديث غريب .

وقوله ﴿أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة . وقال الشافعي وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة . وأخذ تقيدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب . ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك ومسنند الشافعي وصحيح مسلم أنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله ؟» . قالت : في السماء . قال «من أنا ؟» قالت : رسول الله . قال «أعتقتها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله . فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين ، أيها فعل الحائث أجزاء عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل ، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة والحسن البصري ، أنها قالوا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام . وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقيه زمانه أنه جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين ؛ واختلف العلماء : هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب ، ويجزئ التفريق ؟ قولان : أحدهما لا يجب وهذا منصوص الشافعي في كتاب الأيمان ، وهو قول مالك لإطلاق قوله ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾ وهو صادق على المجموعة والفرقة ، كما في قضاء رمضان لقوله ﴿فعدة من أيام أخر﴾ ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع ، كما هو قول الحنفية والحنابلة ، لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءونها ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾ . قال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ، عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾ وحكاها مجاهد والشعبي وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود ، وقال إبراهيم في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾ . وقال الأعمش كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك ، وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً ، فلا أقل أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع . وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن علي ، حدثنا محمد بن جعفر الأشعري ، حدثنا الهيثم بن خالد القرشي ، حدثنا يزيد بن قيس عن إسماعيل بن يحيى ، عن ابن جريج ، عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة : يا رسول الله نحن بالخيار ؟ قال «أنت بالخيار إن شئت أعتقت ، وإن شئت كسوت ، وإن شئت أطعمت ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وهذا حديث غريب جداً . وقوله ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ . قال ابن جرير : معنا لا تتركوها بغير تكفير ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي يوضحها ويفسرها ﴿لعلكم تشكرون﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهَا حَتْمٌ وَآمِنٌ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ

الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٣٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

﴿١٣١﴾

يقول تعالى : ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار ؛ وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : الشطرنج من الميسر ، رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن عيسى بن مرحوم ، عن حاتم ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي ، حدثنا وكيع عن سفيان ، عن ليث ، عن عطاء ومجاهد وطاوس قال : سفيان أو اثنين منهم قالوا : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز : وروي عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب مثله ، وقالوا : حتى الكعب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان . وقال موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : الميسر هو القمار . وقال الضحاك ، عن ابن عباس ، قال : الميسر هو القمار ، كانوا يتقمارون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام ، فتهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة . وقال مالك ، عن داود بن الحصين أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين . وقال الزهري ، عن الأعرج ، قال : الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار . وقال القاسم بن محمد : كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر ، رواه ابن أبي حاتم ؛ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن مقصور الزبدي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد ، عن القاسم عن أبي أمامة ، عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ قال «اجتنبوا هذه الكعب الموسومة التي يزرعها زجراً ، فإنها من الميسر» حديث غريب ، وكان المراد بهذا هو النرد الذي ورد الحديث به في صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ «من لعب بالنردشير ، فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه» وفي موطأ مالك ومسنند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله» وروي موقوفاً عن أبي موسى من قوله ، فأنه أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إبراهيم ، حدثنا الجعيد عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول : أخبرني ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ ؛ فقال عبد الرحمن : سمعت أبي يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول «مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلي ، مثل الذي يتوضأ بالقح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلي» وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر إنه شر من النرد ؛ وتقدم عن علي أنه قال : هو من الميسر ، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي ، رحمهم الله تعالى ، وأما الأنصاب ، فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبيرة والحسن وغير واحد : هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ؛ وأما الأزام فقالوا أيضاً : هي قداح كانوا يستقسمون بها ، رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿رجس من عمل الشيطان﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي سخط من عمل الشيطان . وقال سعيد بن جبيرة : إثم . وقال زيد بن أسلم : أي شر من عمل الشيطان ، ﴿فاجتنبوه﴾ الضمير عائد على الرجس ، أي اتركوه ﴿لعلكم تفلحون﴾ وهذا ترغيب ؛ ثم قال تعالى : ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون﴾ وهذا تهديد وترهيب .

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر

قال الإمام أحمد : حدثنا شريح ، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة ، عن أبي هريرة قال : حرمت الخمر ثلاث مرات ، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنها ، فأنزل الله ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس﴾ إلى آخر الآية . فقال الناس : ما حرما علينا إنما قال ﴿فيها إثم كبير ومنافع للناس﴾ ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين ، أم أصحابه في المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا

ما تقولون؟ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغيب؛ ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿يَأْيُمُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يارسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وماتوا على فرشهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية؛ فقال النبي ﷺ «لو حرم عليهم لتكروه كما تركتم» انفرد به أحمد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر، قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا؛ فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَأْيُمُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة، نادى: لا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه؛ فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا؛ فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فهل أنتم متبهون﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق عمر بن عبد الله السبيعي، وعن أبي ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني، عن عمر، وليس له عنه سواه؛ قال أبو زرعة: ولم يسمع منه. وصحح هذا الحديث علي بن المديني والترمذي. وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل. وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن بشر، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، حدثني نافع عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة مافيهما شراب العنب. [حديث آخر] قال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن أبي حميد، عن المصري يعني أبا طعمة قارىء مصر، قال: سمعت ابن عمر يقول: نزلت في الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية؛ فقيل: حرمت الخمر؛ فقالوا: يارسول الله، دعنا نتنعف بها كما قال الله تعالى؛ قال: فسكت عنهم؛ ثم نزلت هذه الآية ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فقيل: حرمت الخمر؛ فقالوا: يارسول الله إنا لا نشرها قرب الصلاة، فسكت عنهم؛ ثم نزلت ﴿يَأْيُمُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا مَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ الآيتين؛ فقال رسول الله ﷺ «حرمت الخمر».

[حديث آخر] قال الإمام أحمد: حدثنا يعلى، حدثنا محمد بن إسحاق عن الفقعاق بن حكيم أن عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف، أو من دوس، فلقبه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه؛ فقال رسول الله ﷺ «يافلان أما علمت أن الله حرّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبيعها؛ فقال رسول الله ﷺ «يافلان بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعهها. قال «إن الذي حرم شربها حرم بيعها» فأمر بها فأفرغت في البطحاء، رواه مسلم من طريق ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، ومن طريق ابن وهب أيضاً عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد، كلاهما عن عبد الرحمن بن وعلة، عن ابن عباس به. ورواه النسائي عن قتيبة عن مالك به.

[حديث آخر] قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن شهر بن حوشب، عن نعيم الداري أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر؛ فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها؛ فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال «إنها قد حرمت بعدك» قال: يارسول الله فأبيعها وأنتفع بثمرتها، فقال رسول الله ﷺ «لعن الله اليهود، حرمت عليهم شحوم البقر والغنم، فأذابوه وباعوه، والله حرم الخمر وتمنها» وقد رواه أيضاً الإمام أحمد فقال: حدثنا روح، حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال: سمعت شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم أن الداري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرمت، جاء براوية، فلما نظر إليه ضحك، فقال «أشعرت أنها قد حرمت بعدك» فقال: يارسول الله، ألا أبيعها وأنتفع بثمرتها؟ فقال رسول الله ﷺ «لعن الله اليهود انطلقوا إلى ما حرم عليهم من شحم البقر والغنم، فأذابوه، فباعوه، إنه ما يأكلون، وإن الخمر حرام وثمنها حرام، وإن الخمر حرام وثمنها حرام، وإن الخمر حرام وثمنها حرام».

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لبيعة عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق

يريد بها التجارة ، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إنني جئتك بشراب طيب ؛ فقال رسول الله ﷺ «ياكيسان إنها قد حرمت بعدك» قال : فأبيعها يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ «إنها قد حرمت وحرم ثمنها» ؛ فانطلق كيسان إلى الزقاق فأخذ بأرجلها ثم هراقها .

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن حميد ، عن أنس قال : كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم ، فأتى آت من المسلمين فقال : أما شعرتم أن الخمر قد حرمت ؟ فقالوا : حتى ننظر ونسال ؛ فقالوا : يأنس اسكب ما بقي في إنائك فوالله ما عادوا فيها ، وماهي إلا التمر والبسر ، وهي خمرهم يومئذ ، أخرجاه في الصحيحين من غير وجه عن أنس . وفي رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة ، وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر ، فإذا مناد ينادي قال : اخرج فانظر ، فإذا ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت ، فجرت في سكك المدينة . قال : فقال لي أبو طلحة : اخرج فاهرقها ، فاهرقتها ؛ فقالوا أو قال بعضهم : قتل فلان وفلان وهي في بطونهم ، قال : أنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثني عبد الكبير بن عبد المجيد ، حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجاجة ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر ، فسمعت منادياً ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . قال : فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب ، وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ، وأصبنا من طيب أم سليم ؛ ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ يقرأ ﴿ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ إلى قوله ﴿فهل أنتم متهون﴾ فقال رجل : يارسول الله ، فما ترى فيمن مات وهو يشربها ؟ فأنزله الله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية ؛ فقال رجل لقتادة : أنت سمعته من أنس بن مالك قال : نعم وقال رجل لأنس بن مالك : أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . أو حدثني من لم يكذب ، ما كنا نكذب ، ولا ندرى ما الكذب .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، أخبرني يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر ، عن بكر بن سودة ، عن قيس بن سعد بن عباد أن رسول الله ﷺ قال «إن ربي تبارك وتعالى ، حرم الخمر والكوبة والقنين ، وإياكم والغبيراء فإنها ثلث خمر العالم» .

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا فرج بن فضالة عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو . قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله حرم على أمي الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين ، وزادني صلاة الوتر» قال يزيد : القنين البرابط ، تفرد به أحمد ، وقال أحمد أيضاً : حدثنا أبو عاصم وهو النبيل ، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، حدثنا يزيد بن أبي حبيب عم عمرو بن الوليد ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال «من قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم» قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام» ، تفرد به أحمد أيضاً .

[حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبي طعمة مولاهم ، وعن عبد الرحمن بن عبد الله العافقي أنها سمعا ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ «لعنت الخمر على عشرة أوجه : لعنت الخمر بعينها ، وشاربها ، وساقها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وأكل ثمنها» ، ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع . وقال أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن فيعة ، حدثنا أبو طعمة ، سمعت ابن عمر يقول : خرج رسول الله ﷺ إلى المرصد فخرجت معه ، فكنت عن يمينه ، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه ، فكان عن يمينه وكنت عن يساره ، ثم أقبل عمر فتنحيت له فكان عن يساره ، فأتى رسول الله ﷺ المرصد فإذا بزقاق على المرصد فيها خمر ، قال ابن عمر : فدعاني رسول الله ﷺ بالمدينة ، قال ابن عمر : وما عرفت المدينة إلا يومئذ ، فأمر بالزقاق فشققت ، ثم قال «لعنت الخمر وشاربها ، وساقها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وعاصرها ومعتصرها ، وأكل ثمنها» . وقال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال : قال عبد الله بن عمر : أمرني رسول الله ﷺ أن آتية بمدية وهي الشفرة ؛ فأتيتها بها ، فأرسل بها ، فأرهفت ثم أعطانيها ، وقال «اغد عليّ بها» ففعلت ، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة ، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام ، فأخذ المدينة مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها ، وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن

يعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ، ففعلت فلم أترك في أسواقها زقاً إلا شققته .
 [حديث آخر] - قال عبد الله بن وهب : أخبرني عبد الرحمن بن شريح وابن لهيعة والليث بن سعد ، عن خالد بن زيد ، عن ثابت أن يزيد الخولاني أخبره أنه كان له عم يبيع الخمر ، وكان يتصدق ، قال : فبهيته عنها فلم ينته ، فقدمت المدينة فلقيت ابن عباس فسألته عن الخمر وئمنها ؛ فقال : هي حرام ، وئمنها حرام ؛ ثم قال ابن عباس رضي الله عنه : يامعشر أمة محمد ، أنه لو كان كتاب بعد كتابكم ، ونبي بعد نبيكم ، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ، ولكن أحر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ، ولعمري هو أشد عليكم . قال ثابت : فليقت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر فقال : سأخبرك عن الخمر ، إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد فبينما هو محتب على جبوته ؛ ثم قال «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها» فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم : عندي راوية ، ويقول الآخر : عندي زق ، أو ماشاء الله أن يكون عنده ؛ فقال رسول الله ﷺ «اجمعوه ببيع كذا وكذا ، ثم اذنوني» ففعلوا ، ثم أذنوه ، فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكئ علي ، فلحقنا أبو بكر رضي الله عنه ، فأخبرني رسول الله ﷺ ، فجعلني عن شماله وجعل أبا بكر في مكاني ، ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأخبرني وجعله عن يساره ، فمضى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس «أتعرفون هذه؟» قالوا : نعم يا رسول الله ، هذه الخمر . قال «صدقتم» ، ثم قال «فإن الله لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وساقها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ومشتريها ، وأكل ثمنها» ثم دعا بسكين فقال «اشحذوها» ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله ﷺ يحرق بها الزقاق . قال : فقال الناس في هذه الزقاق منفعة ، فقال «أجل ولكني إنما أفعل ذلك غضباً لله عز وجل لما فيها من سخطه» فقال عمر : أنا أكفيك يا رسول الله ، قال «لا» قال ابن وهب : وبعضهم يزيد على بعض في قصة الحديث ، رواه البيهقي .

[حديث آخر] - قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو الحسين بن بشر ، أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار ، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادي ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا شعبة عن سماك ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد قال : أنزلت في الخمر أربع آيات ، فذكر الحديث قال : وضع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا ، فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا فتناخرنا ، فقالت الأنصار : نحن أفضل ، وقالت قريش : نحن أفضل ، فأخذ رجل من الأنصار لحي جزور ، فضرب به أنف سعد ففرزه ، وكانت أنف سعد مفزورة ، فنزلت ﴿إنما الخمر والميسر﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فهل أنتم متهون﴾ ، أخرجه مسلم من حديث شعبة .

[حديث آخر] - قال البيهقي : وأخبرنا أبو نصر بن قتادة ، أنبأنا أبو علي الرضا ، حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا ربيعة بن كلثوم ، حدثني أبي عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار ، شربوا فلما أن ثمل القوم ، عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول صنع بي هذا أخي فلان ، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن ، فيقول : والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا ، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله تعالى : ﴿فهل أنتم متهون﴾ فقال أناس من المتكلمين : هي رجس وهي في بطن فلان ، وقد قتل يوم أحد ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية ؛ ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة ، عن حجاج بن منهال .

[حديث آخر] - قال ابن جرير : حدثني محمد بن خلف ، حدثنا سعيد بن محمد الحرمي عن أبي ثميلة ، عن سلام مولى حفص أبي القاسم ، عن أبي بريدة ، عن أبيه قال : بينا نحن قعود على شراب لنا ، ونحن على رملة ، ونحن ثلاثة أو أربعة ، وعندنا باطية لنا ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، إذ نزل تحريم الخمر ﴿يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى آخر الآيتين ؛ ﴿فهل أنتم متهون﴾ فحثت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله ﴿فهل أنتم متهون﴾ قال : وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء ، فقال : بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجاج ، ثم صبوا ما في باطيتهم ، فقالوا : انتهينا ربنا .

[حديث آخر] - قال البخاري : حدثنا صدقة بن الفضل ، أخبرنا ابن عيينة عن عمرو ، عن جابر قال : صحب أناس غداة أحد الخمر ، فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء ، وذلك قبل تحريمها ، هكذا رواه البخاري في تفسيره من صحيحه . وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا سفيان بن عمرو بن دينار ، سمع جابر بن عبد الله يقول : اصطحب ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ ، ثم قتلوا شهداء يوم أحد ؛ فقالت اليهود : فقد مات بعض الذين قتلوا وهي في بطونهم ، فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ ثم قال : وهذا

إسناد صحيح ، وهو كما قال ، ولكن في سياقه غرابة .

[حديث آخر] - قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن أبي إسحاق ، عن البراء بن عازب قال : لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم ؟ فنزلت ﴿ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية ؛ ورواه الترمذي عن غندر عن شعبة به نحوه ؛ وقال : حسن صحيح .

[حديث آخر] - قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا جعفر بن حميد الكوفي ، حدثنا يعقوب القمي عن عيسى بن جارية ، عن جابر بن عبد الله قال : كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين ، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة فلقه رجل من المسلمين فقال : يا فلان ، إن الخمر قد حرمت ، فوضعها حيث انتهى على تل ، وسجى عليها بأكسية ، ثم أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، بلغني أن الخمر قد حرمت ؟ قال «أجل» . قال : لي أن أردّها علي من ابتعتها منه ؟ قال : «لا يصلح ردّها» . قال : لي أن أهديها إلى من يكافئني منها ؟ قال «لا» . قال : فإن فيها مالا ليتامى في حجري . قال «إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم» ثم نادى بالمدينة ، فقال رجل : يا رسول الله ، الأوعية تنتفع بها ؟ قال «فحلوا أوكيتها» فانصبت حتى استقرت في بطن الوادي ، هذا حديث غريب . [حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن السدي ، عن أبي هبيرة وهو يحيى بن عباد الأنصاري ، عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرًا فقال «أهرقها» . قال : أفلا نجعلها خلًا ؟ قال «لا» . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث الثوري نحوه .

[حديث آخر] قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا عبد العزيز بن سلمة حدثنا هلال بن أبي هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال : إن هذه الآية التي في القرآن «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» قال : هي في التوراة إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ، ويبطل به اللعب والمزامير ، والزفن والكبارات ، يعني البرابطة والزمارات ، يعني به الدف والطناير والشعر والخمر مرة لمن طعمها ، أقسم الله بيمينه وعزته من شربها بعد ما حرمتها لأعطشها يوم القيامة ، ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقيته إياها في حظيرة القدس ، وهذا إسناد صحيح .

[حديث آخر] - قال عبد الله بن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث أن عمرو بن شعيب حدثهم عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله ﷺ قال «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلها ، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات ، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال» قيل : وما طينة الخبال ؟ قال «عصارة أهل جهنم» ورواه أحمد من طريق عمرو بن شعيب .

[حديث آخر] - قال أبو داود : حدثنا محمد بن رافع ، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني قال : سمعت النعمان هو ابن أبي شيبة الجندي يقول عن طاوس ، عن ابن عباس ؛ عن النبي ﷺ قال «كل غمر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكرًا بخست صلواته أربعين صباحًا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال» قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال «صديد أهل النار . ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه ، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال» تفرد به أبو داود .

[حديث آخر] - قال الشافعي رحمه الله : أنبأنا مالك عن نافع ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» أخرجه البخاري ومسلم من حديث مالك . وروى مسلم عن أبي الربيع ، عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها ، لم يشربها في الآخرة» .

[حديث آخر] - قال ابن وهب : أخبرني عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار أنه سمع سالم بن عبد الله يقول : قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى» . ورواه النسائي عن عمرو بن علي ، عن يزيد بن زريع ، عن عمر بن محمد العمري . وروى أحمد عن غندر ، عن شعبة ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر» . ورواه أحمد أيضًا عن عبد الصمد ، عن عبد العزيز بن أسلم ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن مجاهد وعن مروان بن شجاع ، عن حصيف ، عن مجاهد . ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا ، عن حسين الجعفي ،

عن زائدة ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد ، كلاهما عن أبي سعيد . [حديث آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا سفيان عن منصور ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن

جبابان ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولا منان ، ولا ولد زنية» وكذا رواه عن يزيد ، عن همام ، عن منصور ، عن سالم ، عن جبابان ، عن عبد الله بن عمرو . وقد رواه أيضاً عن غندر وغيره ، عن شعبة ، عن منصور ، عن سالم ، عن نبيب بن شريط ، عن جبابان ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة منان ، ولا عاق والديه ، ولا مدمن خمر» . ورواه النسائي من حديث شعبة كذلك ، ثم قال : ولا نعلم أحداً تابع شعبة عن نبيب بن شريط . وقال البخاري : لا يعرف لجبابان سماع من عبد الله ، ولا لسالم من جبابان ولا نبيب ؛ وقد روي هذا الحديث من طريق مجاهد عن ابن عباس ، ومن طريقه أيضاً عن أبي هريرة ، فإله أعلم .

وقال الزهري : حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال : سمعت عثمان بن عفان يقول اجتنبو الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيفة عندها غلام وباطية خمر فقالت إني والله ما دعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأساً فقال زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر عن محمد بن عبد الله بن بزيع عن الفضيل بن سليمان النميري عن عمر بن سعيد عن الزهري به مرفوعاً والموقوف أصح والله أعلم وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق سرقه حين يسرقها وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» .

وقال أحمد بن حنبل : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا إسرائيل عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما حرمت الخمر قال ناس : يا رسول الله ، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؛ فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية ، ولما حولت القبلة قال ناس : يا رسول الله ، إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس ؛ فأنزل الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ وقال الإمام أحمد : حدثنا داود بن مهراة الدباغ ، حدثنا داود يعني العطار عن أبي خيثم ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة ، إن مات مات كافراً» ، وإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبث» قالت : قلت : يا رسول الله ، وما طينة الخبث ؟ قال «صديد أهل النار» وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لما نزلت ﴿ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إذا ما اتقوا وآمنوا فقال النبي ﷺ «قيل لي : أنت منهم» وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريقه . وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قرأت على أبي ، حدثنا علي بن عاصم ، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «إياكم وهاتان الكبعتان الموسومتان اللتان تزجران زجراً فإنهما يسير العجم» .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلْبِسْكُمْ اللَّهُ بَشِيءَ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَذَا يَبْلُغُ الْكُتُبَةَ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامٌ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيًّا مَائِدُوقٌ وَيَأْتِيهِمْ مِنْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلْفٌ وَمَنْ عَادَ فَسَتَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو نِقَامٍ ﴿٩٥﴾

قال الوالبي عن ابن عباس قوله ﴿ليلبسكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم﴾ قال : هو الضعيف من الصيد ، وصغيره يتلبس الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم ، فنهاهم الله أن يقربوه . وقال مجاهد ﴿تناله أيديكم﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ، ﴿ورماحكم﴾ يعني كباره ؛ وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحاهم ، لم يروا مثله قط فيها خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون ﴿ليعلم الله من يخافه بالغيب﴾ يعني أنه تعالى يتلبسهم بالصيد ، يقشاهم في رحاهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سرا وجهراً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره ، كما قال تعالى : ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم

مغفرة وأجر كبير» وقوله ههنا «فمن اعتدى بعد ذلك» قال السدي وغيره : يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ، «فله عذاب أليم» أي لمخالفته أمر الله وشرعه .

ثم قال تعالى : «يأليها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم» وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الاحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه ، وهذا إما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين من طريق الزهري عن عروة ، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والخذأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور» . وقال مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح : الغراب ، والخذأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور» أخرجه ، ورواه أبو بوب عن نافع عن ابن عمر مثله . قال أبو بوب : فقلت لنافع : فالحية ؟ قال الحية لاشك فيها ، ولا يختلف في قتلها . ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسيب والنمر والفهد ، لأنها أشد ضرراً منه ، فإله أعلم .

وقال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها ، واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال «اللهم سلط عليه كلبك بالشام» فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا : فإن قتل ما عداهن فداءه ، كالضبع والثعلب والوبر ونحو ذلك ، قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي . وقال الشافعي : يجوز للمحرم قتل كل مالا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغاره وكباره ، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل . وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ، لأنه كلب بري ، فإن قتل غيرها فداءه إلا أن يصول عليه سبع غيرها فيقتله فلا فداء عليه ، وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حي . وقال زفر بن الهذيل : يفدي ما سوى ذلك وإن صال عليه .

وقال بعض الناس : المراد بالغراب ههنا الأبقع ، وهو الذي في بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ، لما رواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس ، عن يحيى القطان ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال «خمس يقتلن المحرم : الحية ، والفأرة ، والخذأة ، والغراب الأبقع ، والكلب العقور» والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك ، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه . وقال مالك رحمه الله : لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وأذاه . وقال مجاهد بن جبير وطائفة : لا يقتله بل يرميه ، ويروى مثله عن علي . وقد روى هشيم : حدثنا يزيد بن أبي زياد : عن عبد الرحمن بن أبي نعم ، عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ أنه سئل عما يقتل المحرم ؟ فقال «الحية ، والعقرب ، والفويسقة ، ويرمي الغراب ولا يقتله ، والكلب العقور ، والخذأة ، والسبع العادي» رواه أبو داود عن أحمد بن حنبل ، والترمذي عن أحمد بن منيع ، كلاهما عن هشيم وابن ماجه ، عن أبي كريب وعن محمد بن فضيل ، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف به . وقال الترمذي : هذا حديث حسن .

وقوله تعالى : «ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم» قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن علية عن أبي بوب قال : نبئت عن طاوس أنه قال : لا يحكم على من أصاب صيداً خطأ ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً ، وهذا مذهب غريب عن طاوس وهو متمسك بظاهر الآية ؛ وقال مجاهد بن جبير : المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد ، الناسي لإحرامه ، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه ، فذاك أمره أعظم من أن يكفر ، وقد بطل إحرامه ؛ ورواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نجيح ، وليث بن أبي سليم وغيرهما عنه ، وهو قول غريب أيضاً ، والذي عليه الجمهور أن العمد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه . وقال الزهري : دل الكتاب على العمد ، وجرت السنة على الناسي ، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأنيبه بقوله أي «ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه» وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دل الكتاب عليه في العمد ، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف ، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمد مأثوم ، والمخطيء غير ملوم .

وقوله تعالى : «فجزاء مثل ما قتل من النعم» قرأ بعضهم بالإضافة ، وقرأ آخرون يعطفها «فجزاء مثل ما قتل من النعم» ، وحكى ابن جرير ، أن ابن مسعود قرأ «فجزاء مثل ما قتل من النعم» . وفي قوله «فجزاء مثل ما قتل من النعم» على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور ، من وجوب الجزاء من مثل ما قتل المحرم ، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله ، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول

مثلياً أو غير مثلي ، قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمانه ، وإن شاء اشترى به هدياً ، والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة بيدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعتر ، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر في كتاب الأحكام ، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمانه يحمل إلى مكة ، رواه البيهقي .

وقوله تعالى : ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذُوا عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين ، واختلف العلماء في القاتل : هل يجوز أن يكون أحد الحكمين ؟ على قولين [أحدهما] لا ، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه ، وهذا مذهب مالك . [والثاني] نعم ، لعموم الآية ، وهو مذهب الشافعي وأحمد ، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة . قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، حدثنا جعفر هو ابن بركان عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر ، فقال : قتلت صيداً وأنا محرم ، فما ترى علي من الجزاء ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده : ماترى فيها ؟ قال : فقال الأعرابي : أنتيك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك ، فإذا أنت تسأل غيرك ؟ فقال أبو بكر : وما تنكر ؟ يقول الله تعالى : ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به ، وهذا إسناد جيد ، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ، ومثله يحتمل ههنا ، فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابياً جاهلاً ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم ، فقد قال ابن جرير : حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعي ، قالا : حدثنا وكيع بن الجراح عن المسعودي ، عن عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بن جابر ، قال : خرجنا حجاجاً ، فكننا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا ، فتمشاشي نتحدث . قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سنخ لنا ظبي أو برح ، فرماه رجل كان معنا بهجر فها أخطأ حشاه ، فركب وودعه ميتاً . قال : فعظمتنا عليه ، فلما قدمنا مكة ، خرجت معي حتى أتيتنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقص عليه القصة فقال : وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة ، يعني عبد الرحمن بن عوف ، فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل فقال : أعمدا قتلته أم خطأ ؟ فقال الرجل : لقد تعمدت رميه وما أردت قتله ، فقال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بدهنها ، واستبق إهابها ، قال : فقمنا من عنده ، فقلت لصاحبي : أيها الرجل ، عظم شعائر الله ، فما درى أمير المؤمنين ما يفنيك حتى سأل صاحبه ، اعمد إلى ناقتك فانحرها . فلعل ذلك يعني أن يجزى عنك ، قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذُوا عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾ فبلغ عمر مقاتلي ، فلم يفجاناً منه إلا ومعه الدرّة ، قال : فعلا صاحبي ضرباً بالدرّة ، أقتلت في الحرم وسفهت في الحكم . قال : ثم أقبل علي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا أحل لك اليوم شيئاً يجرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر ، اني أراك شاب السن ، فسيح الصدر ، بين اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء ، فيفسد الخلق السيء الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب . وروى هشيم هذه القصة عن عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بنحوه . ورواها أيضاً عن حصين ، عن الشعبي ، عن قبيصة بنحوه . وذكرها رسالة عن عمر بن بكر بن عبد الله المزني ومحمد بن سيرين بنحوه . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن أبي وائل ، أخبرني ابن جرير البجلي ، قال : أصبت ظبياً وأنا محرم ، فذكرت ذلك لعمر ، فقال : اثنت رجلين من إخوانك فليحكما عليك ، فأتيت عبد الرحمن وسعداً فحكما علي بتيس أعفر . وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا ابن عيينة عن مخارق ، عن طارق ، قال : أوطأ أريد ظيياً فقتله وهو محرم ، فأتى عمر ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معي ، فحكما فيه جدياً قد جمع الماء والشجر ، ثم قال عمر ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذُوا عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾ ، وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعي وأحمد رحمهما الله ، واختلفوا : هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم ، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل ، وإن كان قد حكم في مثله الصحابة أو يكفي بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين ؛ فقال الشافعي وأحمد : يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة ، وجعله شرعاً مقررًا لا يعدل عنه ، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين . وقال مالك وأبو حنيفة : بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا ، لقوله تعالى : ﴿يُحْكَمُ بِهِ ذُوا عَدَلٍ مِنْكُمْ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿هُدْيًا بِالْعُكْبَةِ﴾ أي واصلاً إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة . وقوله ﴿أَوْ كَفَّارَةً طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدَلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والاطعام والصيام ، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسر ، وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن

أحمد ، رحمهم الله ، لظاهر «أو» بأنها للتخيير ، والقول الآخر أنها على الترتيب ، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة ، فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم . وقال الشافعي : يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ، ثم يشتري به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه ، عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز ، واختاره ابن جرير ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : يطعم كل مسكين مدين ، وهو قول مجاهد . وقال أحمد : مد من حنطة أو مدان من غيره ، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير ، صام عن إطعام كل مسكين يوماً . وقال ابن جرير : وقال آخرون : يصوم مكان كل صاع يوماً كما في جزاء المترفة بالخلق ونحوه ، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقاً بين ستة ، أو يصوم ثلاثة أيام ، والفرق ثلاثة أصع ، واختلفوا في مكان هذا الإطعام ، فقال الشافعي : مكانه الحرم ، وهو قول عطاء . وقال مالك يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه . وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم ، وإن شاء أطعم في غيره .

ذكر أقوال السلف في هذا المقام

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، حدثنا جرير عن منصور ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن عباس في قول الله تعالى : ﴿ فجزأه مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ قال : إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم ، فإن لم يجد ، نظر كم ثمنه ، ثم قوم ثمنه ضعافاً ، فصام مكان كل نصف صاع يوماً ، قال الله تعالى : ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ ، قال : إنم أريد بالطعام والصيام ، فإنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه ، ورواه ابن جرير من طريق جرير . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ ، فإذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه ، فإن قتل طيباً أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة ، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ؛ فإن قتل أيللاً أو نحوه ، فعليه بقرة ، فإن لم يجد أطعم عشرين مسكيناً ، فإن لم يجد صام عشرين يوماً ، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه ، فعليه بدنة من الإبل ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً ، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً ؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وزاد : الطعام مد مد يشبههم ، وقال جابر الجعفي ، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد ﴿ أو عدل ذلك صياماً ﴾ قالوا إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدي رواه ابن جرير وكذا روى ابن جريج عن مجاهد وأصحاب عن السدي أنها على لترتيب . وقال عطاء وعكرمة ومجاهد في رواية الضحاك وإبراهيم النخعي : هي على الخيار ، وهي رواية الليث عن مجاهد ، عن ابن عباس ؛ واختار ذلك ابن جرير رحمه الله .

وقوله ﴿ ليدوق وبال أمره ﴾ أي أوجينا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية ؛ ثم قال ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿ فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾ . قال ابن جريج : قلت لعطاء : ما ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ ؟ قال : عما كان في الجاهلية . قال : قلت : وما ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ ؟ قال : ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه ، وعليه مع ذلك الكفارة . قال : قلت : فهل في العود من حد تعلمه ؟ قال : لا ، قال : فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه ؟ قال : لا ، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ، ولكن يفندي ، روه ابن جرير . وقيل : معناه فينتقم الله منه بالكفارة ، قاله سعيد بن جبيرة وعطاء ، ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة ، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم ، يحكم عليه فيه كلما قتله ، فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة ، فإن عاد يقال له : ينتقم الله منك ، كما قال الله عز وجل . وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي ، جميعاً عن هشام هو ابن حسان ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، فيمن أصاب صيداً يحكم عليه ثم عاد قال : لا يحكم عليه ، ينتقم الله منه . وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبيرة وأخس البصري وإبراهيم النخعي ، رواه ابن جرير ، ثم اختار القول الأول . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن يزيد العبدي ، حدثنا المعتمر بن سليمان عن زيد بن أبي المعل ، عن الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً فتجوز عنه ، ثم عاد فأصاب صيداً آخر ؛ فنزلت نار من السماء فأحرقته ، فهو قوله ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ . وقال ابن جرير في قوله ﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾ يقول ، عز ذكره ، والله منيع في سلطانه ، لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه ، والأمر أمره ، له العزة والمنعة . وقوله ﴿ ذو انتقام ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾ جَمَلَ اللَّهُ الْكُفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَاتِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢١﴾

قال ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس في رواية عنه ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير وغيرهم ، في قوله تعالى : ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ يعني ما يصطاد منه طرياً ﴿وطعامه﴾ ما يتزود به مليحاً يابساً ، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذ منه حياً ﴿وطعامه﴾ ما لفظه ميتاً ، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهم ، وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري ، قال سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن أبي بكر الصديق أنه قال ﴿طعامه﴾ كل ما فيه ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن حديد ، حدثنا جرير عن مغيرة ، عن سماك قال : حدثت عن ابن عباس قال : خطب أبو بكر الناس ، فقال ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ وطعامه ما قذف . قال : وحدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عليه عن سليمان التيمي ، عن أبي مجلز ، عن ابن عباس في قوله ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ قال ﴿طعامه﴾ ما قذف .

وقال عكرمة عن ابن عباس ، قال : طعامه ما لفظ من ميتة ؛ ورواه ابن جرير أيضاً . وقال سعيد بن المسيب : طعامه ما لفظه حياً أو حسر عنه فمات ، رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب عن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر ، فقال : إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة ، أفنأكلها ؟ فقال : لا تأكلوها ، فلما رجع عبد الله إلى أهله ، أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية ﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيارة﴾ فقال : اذهب فقتل له : فليأكله فإنه طعامه ، وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه مامات فيه . قال : وقد روي في ذلك خير ، وإن بعضهم يرويه موقوفاً ، حدثنا هناد بن السري قال : حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو ، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ قال «طعامه ما لفظه ميتاً» ثم قال : وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة . حدثنا هناد ، حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة في قوله ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ قال : طعامه ما لفظه ميتاً . وقوله ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي متفعة وقتوا لكم أيها المخاطبون ﴿وللسيارة﴾ وهم جمع سيار ؛ قال عكرمة : لمن كان بحضرة البحر والسفر وقال غيره : الطري منه لمن يصطاده من حاضرة البحر ، وطعامه مامات فيه أو اصطيد منه وملح ، وقد يكون زاداً للمسافرين والنائين عن البحر ؛ وقد روي نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم . وقد استدلل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة ، وبما رواه الإمام مالك بن أنس عن ابن وهب وابن كيسان ، عن جابر بن عبد الله قال : بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبل الساحل ، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثمائة وأنا فيهم ، قال : فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش ، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر ، قال : فكان بقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني ، فلم يكن يصيبنا إلا تمر تمر ، فقال : فقد وجدنا فقدناها حين فني ، قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب ، فأكل منه ذلك الجيش ثمانين عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ، ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتها ، فلم تصبها ، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله طرق عن جابر .

وفي صحيح مسلم من رواية أبي الزبير عن جابر ، فإذا على ساحل البحر مثل الكتيب الضخم ، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها العنبر ، قال : قال أبو عبيدة : ميتة ؛ ثم قال : لا نحن رسل رسول الله ﷺ ، وقد اضطرتهم فكلوا ، قال : فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلثمائة حتى سمننا ، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال الدهن ، ويقطع منه الفدر كالشور ، قال : ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا ، فمر من تحته ، وتزودنا من لحمه ، وسائق ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، فقال «هو

رزق أخرجه الله لكم هل معكم من لحمه شيء فطعمونا؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه ، فأكله . وفي بعض روايات مسلم أنهم كانوا مع النبي ﷺ حين وجدوا هذه السمكة ، فقال بعضهم : هي واقعة أخرى ، وقال بعضهم : بل هي قضية واحدة ، ولكن كانوا أولاً مع النبي ﷺ ، ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة ، والله أعلم . وقال مالك عن صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة عن آل ابن الأزرق : أن المغيرة بن أبي بردة وهو من بني عبد الدار ، أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول : سأل رجل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إننا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» ، وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع ، وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم ، وقد روي عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة ، حدثنا أبو المهزم هو يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول : كنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة ، فاستقبلنا جراد ، فجعلنا نضربهن بعضنا وسيطانا ، فقتلن ، فسقط في أيدينا ، فقلنا : ما نصنع ونحن محرمون؟ فسألنا رسول الله ﷺ فقال «اللباس بصيد البحر» أبو المهزم ضعيف ، والله أعلم . وقال ابن ماجه : حدثنا هارون بن عبد الله الجمال ، حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا زياد بن عبد الله عن غلام ، عن موسى بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن جابر وأنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال «اللهم أهلك كباره ، واقتل صغاره ، وأفسد بيضه ، واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا ، إنك سميع الدعاء» ؛ فقال خالد : يا رسول الله ، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال «إن الجراد نثره الحوت في البحر» قال هاشم : قال زياد : فحدثني من رأى الحوت ينثره ، تفرد به ابن ماجه . وقد روى الشافعي عن سعيد ، عن ابن جريج ، عن ابن عباس أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئاً ، قد تقدم عن الصديق أنه قال : طعامه كل مافيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها ، لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من رواية ابن أبي ذئب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع ، وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع ، وقال : نقيها تسبيح . وقال آخرون : يؤكل من صيد البحر السمك ، ولا يؤكل الضفدع ، واختلفوا فيما سواهما ، فقيل : يؤكل سائر ذلك . وقيل : لا يؤكل . وقيل : ما أكل شبهه من البر ، أكل مثله في البحر . وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل ؛ وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يؤكل مامات في البحر ، كما لا يؤكل مامات في البر ، لعدم قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ مَيْتَةً﴾ وقد ورد حديث بنحو ذلك ، فقال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقي هو ابن قانع ، حدثنا الحسين بن إسحاق التستري وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان ، قالوا : حدثنا الحسين بن يزيد الطحان ، حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ذئب ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ «ما صدتموه وهو حي فمات فكلوه ، وما ألقى البحر ميتاً طافياً فلا تأكلوه» ؛ ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية ويحيى بن أبي أنيسة عن أبي الزبير عن جابر به ، وهو منكر ، وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره ، وبحديث «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» ؛ وقد تقدم أيضاً .

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أحلت لنا ميتتان ودمان ؛ فأما الميتتان : فالخوت والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال» ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد ، وروي موقوفاً ، والله أعلم .

وقوله ﴿وحرم عليكم صيد البر مادتم حرماً﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك فإذا اصطاد المحرم الصيد متممداً ، أثم وغرم ، أو مخطئاً ، غرم وحرم عليه أكله ، لأنه في حقه كالميتة ، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحليين ، عند مالك والشافعي في أحد قوليه ، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو سيف ومحمد بن الحسن وغيرهم ، فإن أكله أو شيئاً منه فهل يلزمه جزاء ثان؟ فيه قولان للعلماء [أحدهما] نعم ، قال : عبد الرزاق عن ابن جريج ، عن عطاء قال : إن ذبحه ثم أكله فكفارتان ، واليه ذهب طائفة . [والثاني] لا جزاء عليه في أكله ، نص عليه مالك بن أنس . قال أبو عمر بن عبد البر : وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ، ثم وطئ ، ثم وطئ قبل أن يجد ، فإنما عليه حد واحد ، وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل .

وقال أبو ثور : إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد ، إلا أنني أكرهه للذي قتله للخير عن رسول الله ﷺ «صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ما لم تصيده أو يصد لكم» وهذا الحديث سيأتي بيانه ، وقوله بإباحته للقاتل غريب . وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عن تقدم ؛ وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث ؛ والله أعلم .

وأما إذا صاد حلال صيداً ، فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا ، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر ، عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام وكعب الأحبار ومجاهد وعطاء في رواية ، وسعيد بن جبير ، وبه قال الكوفيون . قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع ، حدثنا بشر بن الفضل ، حدثنا سعيد عن قتادة أن سعيد بن المسيب حدثه عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أياكله المحرم ؟ قال : فأفتاهم بأكله ، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره ، فقال : لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك . وقال آخرون : لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقاً لعدم هذه الآية الكريمة .

وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن طاوس ، وعبد الكريم عن ابن أبي آسية عن طاوس ، عن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم ، وقال : هي مبهمة يعني قوله «وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حراماً» قال : وأخبرني معمر عن الزهري ، عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال . قال معمر : وأخبرني أيوب عن نافع ، عن ابن عمر مثله ، قال ابن عبد البر : وبه قال طاوس وجابر بن زيد ، واليه ذهب الثوري وإسحاق بن راهويه في رواية ، وقد روي نحوه عن علي بن أبي طالب ، رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب أن علياً كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال .

وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور : إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً وهو بالأبواء أو بؤدان ، فرده عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال «إنما لم ترده عليك إلا أنا حرم» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة ؛ قالوا : فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إما صاده من أجله ، فرده لذلك ، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش ، وكان حلالاً لم يجرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال «هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها؟» قالوا : لا . قال «فكلوا» وأكل منها رسول الله ﷺ ؛ وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد ، قالوا : حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ، وقال قتيبة في حديثه : سمعت رسول الله ﷺ يقول «صيد البر لكم حلال» قال سعيد - وأنتم حرم - ما لم تصيده أو يصد لكم» ، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، جميعاً عن قتيبة . وقال الترمذي : لا تعرف للمطلب سماعاً من جابر ، ورواه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه من طريق عمرو بن أبي عمرو ، عن مولاة المطلب ، عن جابر ، ثم قال : وهذا أحسن حديث روي في هذا الباب وأقيس . وقال مالك رضي الله عنه ، عن عبد الله بن أبي بكر ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطفة أرجوان ، ثم أتى بلحم صيد ، فقال لأصحابه : كلوا ؛ فقالوا : أولاً تأكل أنت ؟ فقال : إني لست كهيتكم إنما صيد من أجلي .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِيهِ الْآلَبَسُ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِلَ لَكُمْ تَسْوَأُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ

لَقُرْءَانَ بُدِّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْحَبُوهَا كُفْرِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أي يأبها الإنسان ﴿كثرة الخبيث﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار ، كما جاء في الحديث «ما قل وكفى خير مما كثر وأهمل» وقال أبو القاسم البغوي في معجمه : حدثنا أحمد بن زهير ، حدثنا الحوطي ، حدثنا محمد بن شعيب ، حدثنا معان بن رفاعة عن

أبي عبد الملك علي بن يزيد عن القاسم ، عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا ، فقال النبي ﷺ «قليل تؤذي شكره ، خير من كثير لا تطيقه» «فاتقوا الله يا أولي الألباب» أي ياذري العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به ، لعلكم تفلحون ، أي في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال «لا يبلغني أحد عن أحد شيئا ، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» وقال البخاري : حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودي ، حدثنا أبي ، حدثنا شعبة عن موسى بن أنس ، عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها «لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا» . قال : فغضب أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين ؛ فقال رجل : من أبي ؟ قال «فلان» فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ رواه النضر وروح بن عبادة عن شعبة ، وقد رواه البخاري في غير هذا الموضع ، ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي من طرق عن شعبة بن الحجاج به . وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة في قوله ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ الآية ؛ قال : فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سأله حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر ، فقال «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيته لكم» فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالا إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يلاحق فيدعى إلى غير أبيه ؛ فقال : يا بني الله ، من أبي ؟ قال «أبوك حذافة» . قال : ثم قام عمر - أوقال : فأنشأ عمر - فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا عائداً بالله - أوقال : أعوذ بالله من شر الفتن - قال : وقال رسول الله ﷺ «لم أر في الخير والشر كالיום قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتها دون الحائط» ، أخرجه من طريق سعيد ؛ ورواه معمر عن الزهري ، عن أنس بنحو ذلك ، أو قريباً منه . قال الزهري : فقالت أم عبد الله بن حذافة : ما رأيت ولداً أعتق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية ، ففضحها على رؤوس الناس ؟ فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا قيس عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان ، ومحار وجهه ، حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال : أين أنا ؟ قال : «في النار» ؛ فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال «أبوك حذافة» ؛ فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ، وبالقرآن إماماً ، إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك ، والله أعلم من أبائنا . قال : فسكن غضبه ، ونزلت هذه الآية ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ الآية ؛ إسناده جيد ؛ وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من السلف ، منهم أسباط عن السدي أنه قال في قوله تعالى : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ قال : غضب رسول الله ﷺ يوماً من الأيام ، فقام خطيباً فقال «سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به» فقام إليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة ، وكان يطعن فيه ؛ فقال : يا رسول الله ، من أبي ؟ فقال : أبوك فلان ، فدعاه لأبيه ؛ فقام إليه عمر بن الخطاب ، فقبل رجله وقال : يا رسول الله ، رضينا بالله رباً ، وبك نبياً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن إماماً ، فأعف عنا عفا الله عنك ، فلم يزل به حتى رضي فيومئذ قال «الولد للفراس ، وللعاهر الحجر» .

ثم قال البخاري : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا أبو النضر ، حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا أبو الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء ؛ فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل تضل ناقتي : أين ناقتي ؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، تفرد به البخاري . وقال الإمام أحمد : حدثنا منصور بن ودان الأسدي ، حدثنا علي بن عبد الأعلى عن أبيه ، عن أبي البخترى وهو سعيد بن فيروز ، عن علي قال : لما نزلت هذه الآية «و الله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» قالوا : يا رسول الله ، أفي كل عام ؟ فسكت ، فقالوا : أفي كل عام ؟ فسكت ، قال : ثم قالوا : أفي كل عام ؟ فقال «لا» ، ولو قلت : نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ الآية ؛ وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق منصور بن وردان ؛ وقال الترمذي : غريب من هذا الوجه ، وسمعت البخاري يقول : أبو البخترى لم يدرك علياً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إبراهيم بن مسلم الهجري ، عن ابن عياض ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج» فقال رجل : أفي كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثاً ، فقال «من السائل ؟» فقال : فلان ؛ فقال «والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ، ولو تركتموه لكفرتم» ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ حتى ختم الآية ؛ ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة وقال : فقام محصن الأسدي ، وفي رواية من هذه الطريق عكاشة بن محصن ، وهو أشبه ، وإبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا زكريا بن يحيى بن أبان المصري ، حدثنا أبو يزيد عبد العزيز أبي الغمر ، حدثنا ابن مطيع معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو ، حدثني سليم بن عامر قال : سمعت أبا أمامة الباهلي يقول : قام رسول الله ﷺ في الناس ، فقال «كتب عليكم الحج» فقام رجل من الأعراب فقال : أفي كل عام ؟ قال : فعلا كلام رسول الله ﷺ ، وأسكت ، وأغضب واستغضب ، ومكث طويلاً ، ثم تكلم فقال «من السائل ؟» فقال الأعرابي : أناذا ؛ فقال «ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم ؟ والله لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم ، ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الخرج ، والله لو أنني أحللت لكم جميع ما في الأرض وحرمت عليكم منها موضع خف ، لوقعتم فيه» قال : فأنزل الله عند ذلك ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ إلى آخر الآية ؛ في إسناده ضعف ؛ وظاهر الآية النبي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عنها وتركها ، وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا حجاج قال : سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبي هاشم مولى الهمداني ، عن زيد بن زائد ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه «لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» الحديث ؛ وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث إسرائيل ؛ قال أبو داود عن الوليد ، وقال الترمذي عن إسرائيل عن السدي ، عن الوليد بن أبي هاشم به ؛ ثم قال الترمذي : غريب من هذا الوجه .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيت عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿وذلك على الله يسير﴾ ؛ ثم قال ﴿عفا الله عنها﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك ﴿والله غفور حلِيم﴾ . وقيل : المراد بقوله ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ﴾ أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق ؛ وقد ورد في الحديث «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته» ولكن إذا نزل القرآن بها جملة فسالتم عن بيانها ، بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها ، ﴿عفا الله عنها﴾ أي ما لم يذكره في كتابه فهو بما عفا عنه ، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها ؛ وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» وفي الحديث الصحيح أيضاً «أن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها» .

ثم قال تعالى : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين أي بسببها ، أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعداوة . وقال العوفي : عن ابن عباس في الآية : أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال «يا قوم كتب عليكم الحج» فقام رجل من بني أسد فقال : يارسول الله ، أفي كل عام ؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فقال «والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، وإذا لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا ؛ وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه» فأنزل هذه الآية ، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصاري من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا ، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه ، رواه ابن جرير .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ﴾ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم ﴿قال : لما نزلت آية الحج ، نادى النبي ﷺ في الناس فقال «يا أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا» فقالوا : يارسول الله ، أعاماً واحداً ، أم كل عام ؟ فقال «لا بل عاماً واحداً ، ولو قلت : كل عام

لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم» . ثم قال الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ رواه ابن جرير . وقال خصيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قال : هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ، ألا ترى أنه قال بعدها ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ ولا كذا ولا كذا ، قال : وأما عكرمة فقال : إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهاه عن ذلك ؛ ثم قال ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ رواه ابن جرير ، يعني عكرمة رحمه الله أن المراد من هذا النبي عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قرش أن يجري لهم أنهارا ، وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك ، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء . وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بَهَا الْأَوَّلُونَ وَأَتَيْنَا نَمُودَ النَّاقَةِ مَبْصُرَةً فُظِّلِمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ وقال تعالى : ﴿وَأَنصَبُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَةُ الْيَوْمِ الَّذِينَ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنَقَلْنَا عَنْكُمْ آلِهَتِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَئِكَ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ﴾ .

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٢﴾
وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوكَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يُهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾

قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب ، قال : البحيرة التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يجلبها أحد من الناس ، والسائبة كانوا يسيبونها لأهتهم لا يحمل عليها شيء . قال : وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوايب» والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج إبل ، بل تنهي بعد بأنتى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ؛ والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعداد ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأغفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي ؛ وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث إبراهيم بن سعد ؛ ثم قال البخاري : قال لي أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال : سمعت سعيداً يخبر بهذا . قال : وقال أبو هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه . ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب ، عن سعيد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه تعالى عنه ، عن النبي ﷺ . قال الحاكم : أراد البخاري أن يزيد عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت ، عن الزهري ، كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزني في الأطراف ، وسكت ولم يبنه عليه ، وفيها قاله الحاكم نظر ، فإن الإمام أحمد وأبو جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد ، عن ابن الهاد ، عن الزهري نفسه ، والله أعلم . ثم قال البخاري : حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا يونس عن الزهري . عن عروة أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سيب السوايب» تفرد به البخاري . وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثر من الجون : «يا أكثرم ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار ، فما رأيت رجلاً أشبهه برجل منك به ، ولا به منك» . فقال أكثرم : تخشى أن يضرنى شبهه يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ «لا ، إنك مؤمن ومهر كافر ، إنه أول من غير دين إبراهيم ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، وهمي الحامي» ، ثم رواه عن هناد ، عن عبدة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله ، ليس هذان الطريقان في الكتب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عمرو بن مجمع ، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ ، قال «إن أول من سيب السوايب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإني رأيت يجر أمعاءه في النار» ، تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ «إني لأعرف أول من سيب السوايب ، وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام» قالوا : ومن هو يارسول الله ؟ قال «عمرو بن لحي أخو

بني كعب ، لقد رأيت يجر قصبه في النار ، تؤذي رائحته أهل النار ، وإنني لأعرف أول من بحر البحائر قالوا : ومن هو يارسول الله ؟ قال «رجل من بني مدلج ، كانت له ناقتان ، فجدع أذانهما ، وحرم ألبانهما ، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك ، فلقد رأيت في النار وهما يعضانه بأفواههما ، ويطأنه بأخفافهما» . عمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة ، أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرحهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ إلى آخر الآيات في ذلك .

فأما البحيرة ، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه ، فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا أذانهما ، فقالوا : هذه بحيرة . وذكر السدي وغيره قريباً من هذا ، وأما السائبة فقال مجاهد هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد ، كانت على هيتها ، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه ، فأكله رجالهم دون نسائهم وقال محمد بن إسحاق . السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر ، سببت فلم تركب ولم يجر وبرها ولم يجلب لبنها إلا لضيء . وقال أبو روق : السائبة كان الرجل إذا خرج فقصت حاجته ، سبب من ماله ناقة أو غيرها ، فجعلمها للطواغيت ، فما ولدت من شيء كان لها . وقال السدي : كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته ، أو عوفي من مرض ، أو كثر ماله ، سبب شيئاً من ماله للأوثان ، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا .

وأما الوصيلة ، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن ، نظروا إلى السابع ، فإن كان ذكراً وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحويها ، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحويهما وقالوا : وصلته أخته فحرمته علينا ، رواه ابن أبي حاتم . وقال عبد الرزاق : أبنانا معمر عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب (ولا وصيلة) ، قال : فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى ، ثم نثت بأنثى فسموها الوصيلة ، ويقولون : وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يجدهونها لطواغيتهم ، وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى . وقال محمد بن إسحاق : الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن ، توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت ، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث ، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها .

وأما الحامي ؛ فقال العوفي عن ابن عباس ، قال : كان الرجل إذا لقع فحله عشرًا قيل : حام فتركوه ؛ وكذا قال أبو روق وقتادة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا : حمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزؤون له وبراً ، ولا يمنعونه من حمى رعي ، ومن حوض يشرب منه ، وإن كان الحوض لغير صاحبه . وقال ابن وهب : سمعت مالكا يقول : أما الحام فمن الإبل ، كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه ، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية .

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي إسحاق السبيعي ، عن أبي الأحوص الجشمي ، عن أبيه مالك بن نضلة ، قال : أتيت النبي ﷺ في خلقان من الشياطين ، فقال لي «هل لك من مال ؟» فقلت : نعم . قال «من أي المال؟» قال : فقلت : من كل المال : من الإبل ، والغنم ، والخليل ، والرقيق ، قال «فإذا أتاك الله مالاً فكفر عليك» ، ثم قال «نتيج إبلك وافية أذانهما؟» قال : قلت : نعم ، وهل تنتج الإبل إلا كذلك ؟ قال «فلعلك تأخذ موسى فتقطع أذان طائفة منها وتقول : هذه بحيرة ، وتشق أذان طائفة منها وتقول : هذه حرم» قلت : نعم . قال «فلا تفعل إن كل ما أتاك الله لك حل» ؛ ثم قال «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبه ولا وصيلة ولا حام» . أما البحيرة ، فهي التي يجدهون أذانهما فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها ، فإذا ماتت اشتركوا فيها .

وأما السائبة ، فهي التي يسيبون لأهنتهم ويذهبون إلى أهنتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة ، فالشاة تلد ستة أبطن ، فإذا ولدت السابع جدعت وقطع قرنها ، فيقولون : قد وصلت فلا يذبحونها ، ولا تضرب ولا تمتع معها وردت على حوض ، هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجا في الحديث .

وقد روي من وجه آخر عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص عوف بن مالك ، من قوله ، وهو أشبه ؛ وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة ، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو ، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة ، عن أبيه ، وليس فيه تفسير هذه ، والله أعلم .
وقوله تعالى : ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ ، أي ما شرع الله هذه الأشياء

ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم ، وقربة يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل هم بل هو وبال عليهم ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك . قال الله تعالى : ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً﴾ أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ، لا يتبعهم إلا من أجهل منهم وأضل سبيلاً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم ، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس ، سواء كان قريباً منه أو بعيداً . قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية يقول تعالى : إذا ما العبد أطاعني فيها أمرته به من الحلال ، ونهته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به ؛ وكذا روى الوالبي عنه ؛ وهكذا قال مقاتل بن حيان ؛ فقله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الأجراء ، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا كان فعل ذلك ممكناً .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا زهير يعني ابن معاوية ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، حدثنا قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغبرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعذبهم بعقابها﴾ . قال : وسمعت أبا بكر يقول : يا أيها الناس إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب الإيمان . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة ، وابن حبان في صحيحه ، وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة ، عن إسماعيل بن أبي خالد به ، متصلاً مرفوعاً ، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق ، وقد رجح رفعه الدارقطني وغيره ، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً في مسند الصديق رضي الله عنه .

وقال أبو عيسى الترمذي : حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا عتبة بن أبي حكيم ، حدثنا عمرو بن جارية اللخمي ، عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية أية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال ﴿بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم﴾ قال عبد الله بن المبارك : وزاد غير عتبة ، قيل : يارسول الله ، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال ﴿بل أجر خمسين منكم﴾ ؛ ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك ، ورواه ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن عتبة بن أبي حكيم .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الحسن بن مسعود رضي الله عنه ، سأله رجل عن قول الله ﴿عليكم أنفسكم﴾ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ؟ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ، ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها ، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل . ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع ، عن أبي العالية ، عن ابن مسعود في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ الآية ؛ قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً ، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه ؛ فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فأمرهما بالمعروف ، وأنهاهما عن المنكر ؟ فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك ، فإن الله يقول ﴿عليكم أنفسكم﴾ الآية . قال : فسمعها ابن مسعود ، فقال : مه لم يجيء تأويل هذه

بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ يسير ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آي تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة ، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ماذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم واحدة ، وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضهم بأس بعض ، فأمروا وأهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء ، والبستم شيعاً ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فأمرؤ ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية ؛ رواه ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا شبابة بن سوار ، حدثنا الربيع بن صبيح ، عن سفيان بن عقال قال : قيل لابن عمر : لوجلست في هذه الأيام ، فلم تأمر ولم تنه ، فإن الله قال ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال ابن عمر : إنها ليست لي ولا لأصحابي ، لأن رسول الله ﷺ قال ﴿ألا فليبلغ الشاهد الغائب﴾ فكان نحن اليهود وأنتم الغيب ، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم . وقال أيضاً : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم ، قالوا : حدثنا عوف عن سوار بن شبيب قال : كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليل العين شديد اللسان ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، نرست كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه ، وكلهم مجتهد لا يألو ، وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة إلا الخير ، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك ؛ فقال رجل من القوم : وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم بالشرك ؟ فقال رجل : إني لست إياك أسأل ، إنما أسأل الشيخ ؛ فأعاد على عبد الله الحديث ؛ فقال عبد الله : لعلك ترى - لا أبا لك - إني سأمرك أن تذهب فتقتلهم ، عظيم وانهم ، وإن عصوك فلعليك بنفسك ، فإن الله عز وجل يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ الآية .

وقال أيضاً : حدثني أحمد بن المقدم ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي ، حدثنا قتادة عن أبي مازن قال : انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة ، فإذا قوم من المسلمين جلوس ، فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل﴾ فقال أكثرهم : لم يجيء تأويل هذه الآية اليوم . وقال : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسن ، حدثنا ابن فضالة عن معاوية بن صالح ، عن جبرين نفي قال : كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ ، وإني لأصغر القوم ، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقلت أنا : أليس الله يقول في كتابه ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ ؟ فأقبلوا عليّ بلسان واحد ، وقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها ؟ فتمنيت أني لم أكن تكلمت ، وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حديث السن ، وإنك تزعت آية ولا تدري ما هي ، وعسى أن تدرك ذلك الزمان ، إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بنفسك ، لا يضرك من ضل إذا اهتديت .

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا ضمرة بن ربيعة قال : تلا الحسن هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال الحسن : الحمد لله بها ، والحمد لله عليها ، ما كان مؤمن فيها مضى ولا مؤمن فيها بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله . وقال سعيد بن المسيب : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت ، رواه ابن جرير . وكذا روي من طريق سفيان الثوري ، عن أبي العميس ، عن أبي البخترى ، عن حذيفة مثله . وكذا قال غير واحد من السلف . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن خالد الدمشقي ، حدثنا الوليد ، حدثنا ابن لبيبة عن يزيد بن أبي حبيب ، عن كعب في قوله ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قال : إذا هدمت كنية دمشق فجعلت مسجداً ، وظهر لبس العصب ، فحينئذ تأويل هذه الآية .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَنَّنَا نَدَا

عَدَلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ

فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ شَيْئاً وَلَوْ كَانَا فَرَقَيْنِ وَلَا تَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْأَتَمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ

أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَيْنِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ

مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا عَدَدْتِنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ آدَبُ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا أَوْ يُحَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمِنَ بَعْدَ

أَيُّنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٨﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل أنه منسوخ ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال حماد بن أبي سليمان ، عن إبراهيم : أنها منسوخة . وقال آخرون : وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير ، بل هو محكم ، ومن ادعى نسخه فعليه البيان ، فقله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانُ﴾ هذا هو الخبر لقوله شهادة بينكم ، فقيل : تقديره شهادة اثنين حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ؛ وقيل : دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان . وقوله تعالى : ﴿ذُوا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنتين بأن يكونتا عدلين . وقوله ﴿مَنْكُمْ﴾ أي من المسلمين . قاله الجمهور . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ قال : من المسلمين ؛ رواه ابن أبي حاتم ، ثم قال : وروي عن عبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدي وقتادة ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك . وقال ابن جرير : وقال آخرون : عن ذلك ﴿ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي من أهل الموصي ، وذلك قول روي عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما .

وقوله ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سعيد بن عوف ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبيرة قال : قال ابن عباس في قوله ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال : من غير المسلمين ، يعني أهل الكتاب ؛ ثم قال وروي عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحيى بن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبيرة والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة وأبي مجلز والسدي ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، نحو ذلك . وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله منكم ، أن المراد من قبيلة الموصي يكون المراد ههنا ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي من غير قبيلة الموصي . وروي ابن أبي حاتم مثله عن الحسن البصري والزهري رحمهما الله .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مِصْيَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ، كما صرح بذلك شريح القاضي . قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو معاوية ووكيع ، قالا : حدثنا الأعمش عن إبراهيم ، عن شريح قال : لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر ، ولا تجوز في سفر إلا في الوصية ؛ ثم رواه عن أبي كريب ، عن أبي بكر بن عياش ، عن أبي إسحاق السبيعي قال : قال شريح فذكر مثله . وروي نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ، وهذه المسألة من أفرادها ، وخالفه الثلاثة فقالوا : لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين ، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا أبو داود ، حدثنا صالح بن أبي الأخضر ، عن الزهري قال : مضت السنة أن لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر ، إنما هي في المسلمين . وقال ابن زيد : نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام ، وذلك في أول الإسلام ، والأرض حرب ، والناس كفار ، وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية ، وفرضت الفرائض وعمل الناس بها ، رواه ابن جرير ، وفي هذا نظر ، والله أعلم . وقال ابن جرير : اختلف في قوله ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانُ ذُوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما ؟ على قولين [أحدهما] أن يوصي إليهما ؛ كما قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال : سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية . قال : هذا رجل سافر ومعه مال ، فادركه قدره ، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته ، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين ، رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع . [والقول الثاني] أنها يكونان شاهدين ، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وصي ثالث معها ، اجتمع فيها الوصفان : الوصاية والشهادة ، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بداء ، كما سيأتي ذكرهما إن شاء الله وبه التوفيق .

وقد استشكل ابن جرير كونها شاهدين قال : لانا لا نعلم حكماً يجلف فيه الشاهد ، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة ، وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام ، على أن هذا حكم خاص ، بشهادة خاصة ، في محل خاص ، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره ، فإذا قامت قرينة الرية ، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة . وقوله تعالى ﴿مُحْسِبُونَهَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال العوفي ، عن ابن

عباس ؛ يعني صلاة العصر ، وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين . وقال الزهري : يعني صلاة المسلمين . وقال السدي ، عن ابن عباس : يعني صلاة أهل دينها . وروي عن عبد الرزاق ، عن أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة . وكذا قال إبراهيم وقتادة وغير واحد . والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي فيحلفان بالله ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي إن ظهرت لكم منها ريبة أنها خانا أو غلا ، فيحلفان حينئذ بالله ﴿ لا نشترى به ﴾ أي بأيماننا ، قاله مقاتل بن حيان ﴿ ثمناً ﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ ولو كان ذا قرى ﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحايه ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها ، وقرأ بعضهم ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ مجروراً على القسم رواها ابن جرير ، عن عامر الشعبي ، وحكي عن بعضهم أنه قرأها ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ والقراءة الأولى هي المشهورة ﴿ إنا إذا لمن الأثمين ﴾ أي إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية .

ثم قال تعالى : ﴿ فإن عثر على أنها استحقا إثماً ﴾ أي فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنها خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك ﴿ فأخرا إن يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ هذه قراءة الجمهور ﴿ استحق عليهم الأوليان ﴾ وروي عن علي وأبي الحسن البصري أنهم قرءوها ﴿ استحق عليهم الأوليان ﴾ وروى الحاكم في المستدرک من طريق إسحاق بن محمد الفروي عن سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن عبيد الله بن أبي رافع ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه . وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليين ﴾ . وقرأ الحسن ﴿ من الذين استحق عليهم الأوليان ﴾ حكاه ابن جرير ، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتها ، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا أولى من يرث ذلك المال ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ أي لقولنا أنها خانا ، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وما اعتدينا ﴾ أي فيما قلنا فيها من الخيانة ، ﴿ إنا إذا لمن الظالمين ﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما ، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولها والحالة هذه ، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل ، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام ، وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن زياد ، حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق ، عن أبي النضر ، عن بادام يعني أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب ، عن ابن عباس ، عن تميم الداري في هذه الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت ﴾ قال : برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بدء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ، معه جام من فضة يريد به الملك ، وهو أعظم تجارته ، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله . قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجاه فبعناه بألف درهم ، واقتسمناه أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجاه ، فسالونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره . قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة ، تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله ، فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبي أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف ، فنزلت ﴿ يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ إلى قوله ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم ، فحلفا ، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بدء ، وهكذا رواه أبو عيسى الترمذي وابن جرير ، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب الحراني ، عن محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، فذكره ، وعنده : فأتوا به رسول الله ﷺ فسأهم البينة ، فلم يجدوا ، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه ، فحلف ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا ، فنزعت الخمسمائة من عدي بن بدء ، ثم قال : هذا حديث غريب ، وليس إسناده صحيح ، وأبو النضر الذي روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث ، هو عندي محمد بن السائب الكلبي ، يكنى أبا النضر ، وقد تركه أهل العلم بالحديث ، وهو صاحب التفسير ؛ سمعت محمد بن إسماعيل يقول : محمد بن السائب الكلبي يكنى أبا النضر ، ثم قال : ولا نعرف لأبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ .

وقد روي عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه ، حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا يحيى بن آدم عن ابن أبي زائدة ، عن محمد بن أبي القاسم ، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بدء ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم ، فلما قدما بتركنه ،

فقدوا جاما من فضة مخصوصا بالذهب ، فأحلفها رسول الله ﷺ ، ووجد الجام بمكة ، فقيل : اشتريناه من تميم وعدي ، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ، وأن الجام لصاحبهم ، وفيهم نزلت ﴿يأياها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ الآية ؛ وكذا رواه أبو داود عن الحسن بن علي عن يحيى بن آدم به ؛ ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وهو حديث ابن أبي زائدة ، ومحمد بن أبي القاسم الكوفي ، قيل : إنه صالح الحديث .

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة ، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر ، رواه ابن جرير ، وكذا ذكرها مرسله مجاهد والحسن والضحاك ، وهذا يدل على اشتهارها في السلف وصحتها ، ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضاً ما رواه أبو جعفر بن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا هشيم قال : أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاً هذه ، قال : فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته ، فأشهد رجلين من أهل الكتاب ، قال : فقدما الكوفة ، فأتيا الأشعري يعني أبا موسى الأشعري رضي الله عنه ، فأخبراه ، وقدما الكوفة بتركته ووصيته ، فقال الأشعري : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ، قال : فأحلفها بعد العصر بالله ما خانا ، ولا كذبا ، ولا بدلاً ، ولا كتباً ، ولا غيراً ، وأنها لوصية الرجل وتركته . قال : فأمضى شهادتهما ، ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس ، عن أبي داود الطيالسي ، عن شعبة ، عن مغيرة الأزرق ، عن الشعبي أن أبا موسى قضى به ، وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي ، عن أبي موسى الأشعري ؛ فقولهُ : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بدء ، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه ، كان سنة تسع من الهجرة ، فعل هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاضل في هذا المقام ، والله أعلم .

وقال أسباط عن السدي في الآية ﴿يأياها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾ قال : هذا في الوصية عند الموت ، يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وما عليه ، قال : هذا في الحضر ﴿أو آخران من غيركم﴾ في السفر ﴿إن أتمت ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره ، وليس بحضرته أحد من المسلمين ، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس ، فيوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه ، فيقبلان به ، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم ، تركوهما ، وإن ارتابوا ، رفعوهما إلى السلطان ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم﴾ قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه : كأنني أنظر إلى العليين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره ، ففتح الصحيفة ، فأنكر أهل الميت وخوفوهما ، فأراد أبو موسى أن يستحلفها بعد العصر ، فقلت : إنها لا يباليان صلاة العصر ، ولكن استحلفها بعد صلاتها في دينها ، فيوقف الرجلان بعد صلاتها في دينها فيحلفان بالله لا نشترى به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربي ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين ، ان صاحبهم بهذا أوصى ، وأن هذه لتركته ، فيقول لها الإمام قبل أن يجلفا : إنكما إن كتمت أو خنتنا فضحتكما في قومكما ، ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما ، فإذا قال لها ذلك فإن ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ رواه ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا هشيم ، أخبرنا مغيرة عن إبراهيم وسعيد بن جبير أنها قالا في هذه الآية ﴿يأياها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ الآية ، قالا : إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين ، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب ، فإذا قدما بتركته فإن صدقها الورثة قبل قولها ، وإن اتهموها حلفا بعد صلاة العصر ، بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : فإن ارتب في شهادتهما استحلفا بعد العصر : بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً ، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبوا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا : بالله أن شهادة الكافرين باطلة وأنا لم نعتد ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿فإن عثر على أنها استحقا إثمًا﴾ يقول : إن اطلع على أن الكافرين كذبوا ﴿فأخراهم يقومون مقامها﴾ يقول : من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة ، وأنا لم نعتد ، فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء ؛ وهكذا روى العوفي عن ابن عباس ، رواهما ابن جرير ، وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم ، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله .

وقوله ﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين ، واستريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي . وقوله ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي يكون الحامل هم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله ، والخوف من

الفضيحة بين الناس إن ردت اليمين على الورثة ، فيحلفون ويستحقون ما يدعون ، ولهذا قال ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ ؛ ثم قال ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم ، ﴿واسمعوا﴾ أي وأطيعوا ، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا أَلَعَلَّمْنَا أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ (١٠٩)

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أهمهم الذين أرسلهم إليهم ، كما قال تعالى : ﴿فلنسلن الذين أرسل إليهم ولنسلن المرسلين﴾ ، وقال تعالى : ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ ، وقول الرسل ﴿لا علم لنا﴾ . قال مجاهد والحسن البصري والسدي : إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . قال عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن الأعمش ، عن مجاهد ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لا علم لنا﴾ ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، حدثنا عنبسة قال : سمعت شيخا يقول : سمعت الحسن يقول في قوله ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ الآية ؛ قال : من هول ذلك اليوم .

وقال أسباط عن السدي ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا ﴿لا علم لنا﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر ، فشهدوا على قومهم ، رواه ابن جرير ؛ ثم قال ابن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا الحجاج عن ابن جرير قوله ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم﴾ أي ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم ؟ قالوا ﴿لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتهم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ يقولون ، للرب عز وجل : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، رواه ابن جرير ، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ، ولاشك أنه قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله ، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبناء وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء ، المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم ، فإنك ﴿أنت علام الغيوب﴾ .

إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذْ آيَدْتُنَا بِرُوحِ

الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتَكَ الْكُتُبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ بَيْتَ عَنكَ إِذْ جَسَّهُمْ بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ

مُتَّبِعٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام مما أجره على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات ؛ فقال ﴿اذكر نعمتي عليك﴾ أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلني إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ، ﴿وعلى والدتك﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبها الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ، ﴿إذ آيدتكم بروح القدس﴾ وهو جبريل عليه السلام ، وجعلتكم نبياً داعياً إلى الله في صفرك وكبرك ، فأنطقتكم في المهدي صغيراً ، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب ، واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي ، ولهذا قال ﴿تكلم الناس في المهدي وكهلاً﴾ أي تدعو إلى الله الناس في صفرك وكبرك وضمن تكلم تدعو ، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب .

وقوله ﴿وإذ علمتكم الكتاب والحكمة﴾ أي الخط والفهم ﴿والتوراة﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ، وقد برد لفظ التوراة في الحديث ، ويراد به ما هو أعم من ذلك . وقوله ﴿وإذ تخلق من الطين كهية الطير بإذني﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ، فتكون طيراً بإذني أي فتنتفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك

في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه .

وقوله تعالى : ﴿وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته .
وقوله ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ، وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا محمد بن طلحة يعني ابن مصرف ، عن أبي بشر ، عن أبي الهذيل ، قال : كان عيسى بن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين ، يقرأ في الأولى ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ ، وفي الثانية ﴿ألم تنزل﴾ السجدة ، فإذا فرغ منها مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسياء : يا قديم ، يا خفي ، يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد ؛ وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة آخر : يا حي ، يا قيوم ، يا الله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، يا رب ؛ وهذا أثر عظيم جداً .

وقوله تعالى : ﴿وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جتتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جتتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم ، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر ، وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ، ورفعناك إلي ، وطهرتك من دنسهم ، وكففتك شرهم . وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتحان واقعاً يوم القيامة ، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي اطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ .
وقوله ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي﴾ وهذا أيضاً من الامتحان عليه ، عليه السلام ، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً ، ثم قيل : إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام ، كما قال تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ الآية ؛ وهو وحي إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى : ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ الآية ؛ وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ أي الهمو ذلك ، فامتثلوا ما الهمو . قال الحسن البصري : ألهمهم الله عز وجل ذلك . وقال السدي : قذف في قلوبهم ذلك ؛ ويعتدل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطة فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا ﴿آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون﴾ .

إِذ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ

يُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا

وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ

تَكُونَ لَنَا عَيْدًا لِأَوْلَانَا وَإِخْرَانًا وَإِيَّاتِنَا وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ

مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٩﴾

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال سورة المائدة ، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة ، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل ، ولا يعرفها النصراني إلا من المسلمين ، فإله أعلم ؛ فقوله تعالى : ﴿إذ قال الحواريون﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك﴾ هذه قراءة كثيرين ، وقرأ آخرون ﴿هل يستطيع ربك﴾ أي هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أن ينزل علينا مائدة من السماء﴾ والمائدة هي الخفوان عليه طعام ، وذكر بعضهم : أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقدهم ، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يفتاتون منها ويتقون بها على العبادة ﴿قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم : اتقوا الله ولا تسألوا هذا فغسه أن يكون فتنة لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ، ﴿قالوا نريد أن نأكل منها﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ، ﴿وتطمئن قلوبنا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ، ﴿ونعلم أن قد صدقتنا﴾ أي ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿ونكون عليها من الشاهدين﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به . ﴿قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل

علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴿ قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يعني يوماً نصلي فيه . وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم . وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولمن بعدنا . وقيل : كافية لأولنا وآخرنا ﴿ وآية منك ﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك ، ﴿ وارزقنا ﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿ وأنت خير الرازقين قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم ﴾ أي فمن كذب بها من أمك يا عيسى وعاندها ، ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ أي من عالمي زمانكم ، كقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ، وكقوله ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ ، وقد روى ابن جرير من طريق عوف الأعرابي عن أبي المغيرة القواسم ، عن عبد الله بن عمرو قال : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون .

ذكر أخبار رويت عن السلف

في نزول المائدة على الحواريين

قال أبو جعفر بن جرير : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج عن ليث ، عن عقيل ، عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال ليني إسرائيل : هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم ، فإن أجر العامل على من عمل له ، ففعلوا ثم قالوا : يا معلم الخير ، قلت لنا : إن أجر العامل على من عمل له ، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ، ولم تكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً ، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى ﴿ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين ﴾ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿ قال : فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات ، وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم ، كذا رواه ابن جرير ، ورواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب قال : كان ابن عباس يحدث ، فذكر نحوه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا سعيد بن عبد الله بن الحكم ، حدثنا أبو زرعة وهبة الله بن راشد ، حدثنا عقيل بن خالد أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء ، قال : فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها ، عليها سبعة أحوات ، وسبعة أرغفة ، حتى وضعتها بين أيديهم ، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي ، حدثنا سفيان بن حبيب ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن جلاس ، عن عمار بن ياسر ، عن النبي ﷺ قال : نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم ، وأمروا أن لا يجنونوا ولا يرفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير ؛ وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة ، ثم رواه ابن جرير عن ابن بشار ، عن ابن أبي عدي ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن جلاس ، عن عمار قال : نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة ، فأمرنا أن لا نجنونوا ولا نجبأوا ولا يدخروا ، قال : فخان القوم وخبأوا وادخروا ، فمسخهم الله قردة وخنازير .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثني ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود عن سماك بن حرب ، عن رجل من بني عجل ، قال : صليت إلى جانب عمار بن ياسر ، فلما فرغ قال : هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل ؟ قال : قلت : لا . قال : إنهم سألو عيسى بن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد ، قال : فقيل لهم : فإنها مقبمة لكم مالم تجبأوا أو تجنونوا أو ترفعوا ، فإن فعلتم فإني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . قال : فما مضى يومهم حتى جبأوا ورفعوا وخنأوا ، فعذبوا عذاباً لم يعذب به أحد من العالمين . وإنكم يا معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء ، فبعث الله فيكم رسلاً من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه ، وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ، وهاكم أن تكتروا الذهب والفضة ، وإيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكتزوها ويعذبكم الله عذاباً ألياً . قال : حدثنا القاسم ، حدثنا حسين ، حدثني حجاج عن أبي معشر ، عن إسحاق بن عبد الله أن المائدة ، نزلت على عيسى بن مريم ، عليها سبعة أرغفة ، وسبعة أحوات ، يأكلون منها ماشاءوا . قال : فسرق بعضهم منها وقال : لعلها لا تنزل غداً ، فرفعت . وقال العوفي عن ابن عباس : نزل على عيسى بن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما نزلوا

إذا شاءوا . وقال خصيف ، عن عكرمة ومقسم ، عن ابن عباس : كانت المائدة سمكة وأرغفة ، وقال مجاهد : هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : نزلت المائدة خبزاً وسمكاً . وقال عطية العوفي : المائدة سمك فيه طعام كل شيء . وقال وهب بن منبه : أنزلها من السماء على بني إسرائيل ، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ماشاءوا من ضروب شتى ، فكان يقعد عليها أربعة آلاف ، وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لثلهم ، فلبثوا على ذلك ماشاء الله عز وجل . وقال وهب بن منبه : نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات ، وحشا الله بين أضعافهن البركة ، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون ، حتى أكل جميعهم وأفضلوا .

وقال الأعمش ، عن مسلم ، عن سعيد بن جبير : أنزل عليها كل شيء إلا اللحم . وقال سفيان الثوري ، عن عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة وجريز ، عن عطاء ، عن ميسرة ، قال : كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام إلا اللحم وعن عكرمة : كان خبز المائدة من الأرز ، رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن علي فيها كتب إلي ، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس ، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن أبي عبيد الله بن مرداس العبدي مولى بني عبد الدار ، عن إبراهيم بن عمر ، عن وهب بن منبه ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان الخير ، أنه قال : لما سأل الخواريون عيسى بن مريم المائدة ، كره ذلك جداً ، فقال : اقتنعوا بما رزقكم الله في الأرض ، ولا تسألوا المائدة من السماء ؛ فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم ، وإنما هلكت ثمود حين سألوها نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان يوارهم فيها ؛ فأبوا إلا أن يأتيهم بها ؛ فلذلك قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا الآية ؛ فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها ، قام فلقى عنه الصوف ، ولبس الشعر الأسود ، وجبة من شعر ، وعباءة من شعر ، ثم توضأ واغتسل ، ودخل مصلاه فصلى ماشاء الله ؛ فلما قضى صلاته ، قام قائماً مستقبلاً القبلة ، وصف قدميه حتى استويا ، فالصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره ، وطأ رأسه خشوعاً ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه ، فلما رأى ذلك دعا الله فقال : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها ، وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم ، وعيسى يبكي خوفاً من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها ، أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين ، وهو يدعو الله في مكانه ويقول : اللهم اجعلها رحمة لهم ، ولا تجعلها عذاباً ، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيني ، إلهي اجعلنا لك شاكرين ، اللهم إني اعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً ورجزاً ، إلهي اجعلها سلامة وعافية ، ولا تجعلها فتنة ومثلة . فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى ، والحواريين وأصحابه حوله يجردون رائحة طيبة لم يجدوا فيها مضي رائحة مثلها قط ، وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكرياً له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا ، وأراههم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة ، وأقبلت اليهود ينظرون ، فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغماً ، ثم انصرفوا بغيب شديد ، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة ، فإذا عليها منديل مغطى فقال عيسى : من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة ، وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه . فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ، ونحمد ربنا ، ونذكر باسمه ، ونأكل من رزقه الذي رزقنا ؟ فقال الحواريون : يا روح الله وكلمته ، أنت أولانا بذلك ، وأحقنا بالكشف عنها . فقام عيسى عليه السلام واستأنف وضوءاً جديداً ، ثم دخل مصلاه ، فصلى كذلك ركعات ، ثم بكى بكاء طويلاً ، ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ، ثم انصرف وجلس إلى السفرة وتناول المنديل ، وقال : بسم الله خير الرازقين ، وكشف عن السفرة ، فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير ، وليس في جوفها شوكة ، يسيل السمن منها سيلاً ، قد تحدد بها بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات ؛ فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : يا روح الله وكلمته ، أمن طعام الدنيا هذا ، أم من طعام الجنة ؟ فقال عيسى : أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تقدير المسائل ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية ؛ فقال له شمعون : لا وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة ، فقال عيسى عليه السلام : ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة ، وإنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة ، فقال له : كن فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتهم باسم الله واحمدوا عليه ربكم ، يمدكم منه ويزدكم ، فإنه بديع قادر شاكر ، فقالوا : يا روح الله وكلمته ، إنا نحب أن يرينا الله آية في هذه الآية ، فقال

عيسى : سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى ؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة ، فقال : ياسمكة عودي بإذن الله حية كما كنت ، فأحيها الله بقدرته ، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية ، تلمظ كما يلمظ الأسد ، تدور عينها ، لها بصيص ، وعادت عليها بواسيرها ، ففرغ القوم منها وانحاسوا ، فلما رأى عيسى منهم ذلك قال : مالكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون ، ياسمكة عودي بإذن الله كما كنت ، فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول ، فقالوا : يا عيسى كن أنت ياروح الله الذي تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد ، فقال عيسى : معاذ الله من ذلك ، يبدأ بالأكل من طلبها ؛ فلما رأى الحواريون وأصحابه امتناع عيسى منها ، خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة ، فحاموها ، فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال : كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم باسم الله واختموه بحمد الله ، ففعلوا فأكلوا منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيشته إذ نزلت من السماء لم ينقص منها شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبرى كل زمن أكل منها ، فلم يزالوا أغنياء أصحاء حتى خرجوا من الدنيا ، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ، ندامة سألت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات ، قال : وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبل بنو إسرائيل إليها يسعون من كل مكان يزاحم بعضهم بعضاً ، الأغنياء والفقراء ، والصغار والكبار ، والأصحاء والمرضى ، يركب بعضهم بعضاً ؛ فلما رأى ذلك جعلها نوباً بينهم تنزل يوماً ولا تنزل يوماً ؛ فلبثوا على ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غياً عند ارتفاع النهار ، فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ، ارتفعت عنهم إلى جو السماء بإذن الله ، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى تتواري عنهم . قال : فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام : أن اجعل رزقي في المائدة للفقراء واليتامى ، والزمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس ، وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم ، وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب الربانيين حتى قالوا لعيسى ، أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء أحق ، فإنه قد ارتاب بها منا بشر كثير ؟ فقال عيسى عليه السلام : هل كنتم وإله المسيح ، طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم ، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً ، وأراكم فيها الآيات والعبر ، كذبتم بها ، وشككنتم فيها ، فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله ، فأوحى الله إلى عيسى : إني آخذ المكذبين بشرطي فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . قال : فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان في آخر الليل ، مسحهم الله خنازير ، فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات ، هذا أثر غريب جداً ، قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة ، وقد جمعت أنا ليكون سيقاه أتم وأكمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى بن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قال الله إني منزلها عليكم﴾ الآية .

وقال قائلون : إنها لم تنزل ؛ فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله : أنزل علينا مائدة من السماء ، قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء ؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ؛ ثم قال ابن جرير : حدثنا الحارث ، حدثنا القاسم هو ابن سلام ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، عن مجاهد قال : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم ؛ وقال أيضاً : حدثنا ابن المشي ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل . وحدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قال : كان الحسن يقول لما قيل لهم ﴿فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ؛ وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبير المائدة لا يعرفه النصارى ، وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما توفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ، ولا أقل من الأحاد ، والله أعلم ؛ ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذي اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى : ﴿إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين﴾ قال : ووعد الله ووعده حق وصدق ؛ وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .

وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هنالك مرصعة بالآلء وأنواع الجواهر ، فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، فحملت إلى

أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرأها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ، ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليها السلام ، فالله أعلم . وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم ، عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك . قال «وتفعلون؟» قالوا نعم . قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال «بل باب التوبة والرحمة» ثم رواه أحمد وابن مردويه ، والحاكم في مستدرکه من حديث سفيان الثوري به .

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْوَالِدِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۖ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧١﴾ مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٣﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد ، هكذا قاله قتادة وغيره ، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى : ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ وقال لسدي : هذا الخطاب والجواب في الدنيا ، وصوبه ابن جرير قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين [أحدهما] أن الكلام بلفظ الماضي . [والثاني] قوله : ﴿إن تعذبهم﴾ و﴿إن تغفر لهم﴾ وهذان الدليلان فيها نظر ، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت . ومعنى قوله ﴿إن تعذبهم﴾ فإنهم عبادك ﴿الآية﴾ ، التبري منهم ، ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعلق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات ، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر ، والله أعلم ، أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة .

وقد روي بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة ، قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ «إذا كان يوم القيامة ، دعي بالأنبياء وأممهم ، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقرأ بها ، فيقول ﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ الآية ؛ ثم يقول ﴿أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون : نعم هو أمرنا بذلك . قال : فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده ، فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار» وهذا حديث غريب عزيز .

وقوله ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل ، كما قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا سفيان عن عمرو ، عن طاوس ، عن أبي هريرة قال : يُلقي عيسى حجته ، ولقاه الله تعالى في قوله ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ قال أبو هريرة ، عن النبي ﷺ : فلقيه الله ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ إلى آخر الآية ، وقد رواه الثوري عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن طاوس بنحوه .

وقوله ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ، فإنه لا يخفى عليك شيء ، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أصمرته ، ولهذا قال ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ ما قلت

هم إلا ما أمرتني به ﴿بإبلاغه﴾ أن عبدوا الله ربي وربكم ﴿أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه﴾ أن عبدوا الله ربي وربكم ﴿أي هذا هو الذي قلت لهم . وقوله﴾ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴿أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم﴾ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴿قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة قال : انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى الغيرة بن النعمان ، فأمل على سفيان وأنا معه ، فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال : سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال ﴿يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة ، عراة ، غرلاً﴾ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴿وإن أول الخلائق يَكْسِي يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح﴾ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم﴾ ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد ، عن شعبة ، وعن محمد بن كثير ، عن سفيان الثوري ، كلاهما عن الغيرة بن النعمان به .

وقوله ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعن رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث : إن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يردددها .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثني فليت العامري ، عن جسر العامرية ، عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بآية حتى أصبح ، يركع بها ويسجد بها ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فلما أصبح ، قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية ، حتى أصبحت تركع بها وترجد بها ؟ قال ﴿إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً .

[طريق أخرى وسياق آخر] - قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، حدثنا قدامة بن عبد الله ، حدثني جسر بنت دجاجة أنها انطلقت معمرة ، فانتهدت إلى الريدة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء ، فصل بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلفهم ، انصرف إلى رحله ، فلما رأى القوم قد أحسوا المكان ، رجع إلى مكانه يصلي ، فجثت فقامت خلفه ، فأومأ إليّ بيمينه ، فقامت عن يمينه ، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه ، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله ، فقامت ثلاثنا ، يصلي كل واحد منا بنفسه ، وتتلو من القرآن ما شاء الله أن تتلو ، وقام بآية من القرآن يردددها حتى صل الغداة ، فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود ، أن سلمه ما أراد إلى ما صنع البارحة ، فقال ابن مسعود بيده : لا أسأله عن شيء ، حتى يحدث إليّ ، فقلت : بأبي وأمي ، قامت بآية من القرآن ومعك القرآن ، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه ؛ قال ﴿دعوت لأمتي﴾ ، قلت : فإذا أجبت أو ماذا رد عليك ؟ قال ﴿أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة﴾ قلت أفلا أبشر الناس ؟ قال ﴿بل﴾ فانطلقت معنفاً ، قريباً من دفقة بحجر ، فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات ، فناداه ان «ارجع» فرجع ، وتلك الآية ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن بكر بن سودة حدثه ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن النبي ﷺ تلا قول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه ، فقال «اللهم أمتي» وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فأسأله ما يبكيه ، فاتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين قال : حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا ابن هبيرة ، أنه سمع أبا تميم الجشاني يقول : حدثني سعيد بن المسيب ، سمعت حذيفة بن اليمان يقول : غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً ، فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال ﴿إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أي رب ، هم خلقك وعبادك ، فاستشارني الثانية فقلت له كذلك ، فقال لي : لا أخزيك في أمتك يا محمد ، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب . ثم أرسل إليّ فقال : ادع تحب وسل تعط ، فقلت لرسوله : أن يعطيني ربي سؤلي ؟ فقال : ما أرسلني

إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطاني ربي ولا فخر ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأنا أمشي حياً صحيحاً ، وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر ، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي ، وأعطاني العز والنصر والرعب يسمى بين يدي أمتي شهراً ، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لي ولأمتي الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج .

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٦﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، فيما أنهاه إليه من التبزي من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ؛ ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ قال الضحاك : عن ابن عباس يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم ، ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين فيها لا يموتون ولا يزولون ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ وسأيتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث ؛ وروى ابن أبي حاتم ها هنا حديثاً عن أنس فقال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا المحاربي عن ليث عن عثمان ، يعني ابن عمير ، أخبرنا اليقظان عن أنس مرفوعاً ، قال : قال رسول الله ﷺ فيه ثم يتجل لهم الرب جل جلاله ، فيقول : سلوني سلوني أعطكم - قال - فيسألونه الرضا فيقول رضيي أحلكم داري ، وأنا أكم كرامتي فسلوني أعطكم ، فيسألونه الرضا - قال - فيشهدهم أنه قد رضي عنهم سبحانه وتعالى . وقوله ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : ﴿ مثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وكما قال ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ وقوله ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ أي هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته ، وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ، ولا عدل ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا صاحبة ، ولا إله غيره ، ولا رب سواه ، قال ابن وهب : سمعت حبي بن عبد الله يحدث عن أبي عبد الرحمن الحبلي ، عن عبد الله بن عمر ، قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة .



قال العوفي وعكرمة وعطاء عن ابن عباس ، أنزلت سورة الأنعام بمكة . وقال الطبراني : حدثنا علي بن عبد العزيز ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة ، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . وقال سفیان الثوري ، عن ليث ، عن شهر بن حوشب ، عن أساء بنت يزيد ، قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة ، وأنا أخذه بزمام ناقة النبي ﷺ ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة . وقال شريك . عن ليث ، عن شهر ، عن أساء ، قالت : نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو في مسير في زجل من الملائكة ، وقد طبقوا ما بين السماء والأرض . وقال السدي . عن مرة عن عبد الله ، قال : نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة ، وروي نحوه من وجه آخر ، عن ابن مسعود . وقال الحاكم في مستدركه . حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ ، وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل ، قال : حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدي ، أخبرنا جعفر بن عون ، حدثنا اسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، حدثنا محمد بن المنكدر ، عن جابر ، قال : لما نزلت سورة الأنعام ، سبج رسول الله ﷺ ثم قال ولقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق ثم قال صحيح على شرط مسلم . وقال أبو بكر بن مردويه : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا إبراهيم ابن درستويه الفارسي ، حدثنا أبو بكر بن أحمد بن محمد بن سالم ، حدثنا ابن أبي فديك ، حدثني عمر بن طلحة الرقاشي ، عن نافع بن مالك بن أبي سهيل ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت سورة الأنعام معها